تراكيب التخييل وجمالية التلقي دراسة تطبيقية في فكر عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة 471هـ (الأسرار والدلائل) أنموذجاً

أ.م.د. كفاية مذكور شلش | جامعة البصرة/كلية الآداب - قسم اللغة العربية

الملخص:

يسلط هذا البحث الضوء على الجماليات التداولية في التراكيب التخييلية. وأثر ذلك على عمليتي الإقناع والإمتاع عند المتلقي على اختلاف أنماطه، وسياق القراءة؛ في فكر علم، من أعلام الإبداع الفكري واللغوي، وهو: عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) صاحب تراكيب النظم، التي شكلت قفزةً نوعية في الدرس اللغوي العربي على اختلاف مراحله وعصوره.

وقد اعتمد البحث منهجاً وصفياً تحليلياً، وبمدونة لغوية، يمثلها بعض الآراء والشواهد في المنجز اللغوي لعبد القاهر، لاسيما كتابي: الإسرار والدلائل اللذين ضمنهما رؤيته حول التجليات الجمالية والدلالات التركيبية التي تحملها التراكيب التخييلية لتحقق للمتلقي إقناعا ولذة، ودعوة إلى المشاركة في إيقاع الحدث أو المضمون الذي تحمله القوالب اللغوية.

الكلمات المفتاحية: التراكيب التخييلية، جمالية التلقي، عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، أسرار البلاغة.

Abstract:
This study sheds light on the pragmatic aesthetics of imaginative structures and their Impact on the processes of persuasion and pleasure experienced by the recipient, across different types of audiences and reading contexts. It explores these aspects through the intellectual and linguistic contributions of one of the most prominent figures of Arabic creative thought, ʿAbd al-Qāhir al-Jurjānī (d. 471 AH), the founder of the theory of al-Naẓm (syntactic arrangement), which represented a qualitative leap In the development of Arabic linguistic studies throughout Its various stages and eras.
The research adopts a descriptive-analytical approach, supplemented by comparative methodology, and relies on a linguistic corpus drawn from al-Jurjānī's major works, particularly Asrār al-Balāghah and Dalāʾil al-Iʿjāz. These works encapsulate his vision of the aesthetic manifestations and syntactic meanings inherent in imaginative constructions, whichh serve to provide the recipient with persuasion, delight, and an Invitation to participate In the rhythm of the event or the meanIng conveyed by linguistic forms.
Keywords: imaginative structures, syntactic arrangement (al-Naẓm), aesthetic manifestations, syntactic semantics

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي محمد وآله الطيبين

أما بعد...

فتجدر الإشارة إلى أن الافتراض بوجود تراكيب أصولية شاملة للتخييل، ودوره في عملية الحجاج، في فكر عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) يعد أمراً مراوغاً، يحتاج إلى التريث قبل الإقرار بثباته؛ إذ إن الدراسات اللسانية والبلاغية

الحديثة لم تضع حدا حاسما لأبعاد تراكيب التخييل في النتاج الأدبي على وجه الخصوص.

تفترض الباحثة أن موضوعاً مختصا مثل هذا الموضوع يحتاج إلى منهجين، أحدهما: المنهج الوصفي القائم على الرصد والتسجيل، والآخر: المنهج التحليلي، الذي فيه يقوم المهتم بالبحث في العلوم الإنسانية إلى الإدلاء برؤيته فيما يعن له من شواهد وأفكار، وقد نجح عبد القاهر الجرجاني في إدراك هذا الأمر، فقام برصد معطيات التخييل، وألزم نفسه بدراستها في الشعر خاصة، إذ درس النصوص المقدسة من القرآن الكريم، والسنة النبوية، كما أنه يُدرك أن التخييل هو روح الشعر خاصة، إذ هو مرتكز على العواطف والصور، وقد تناول عبد القاهر التخييل برؤية فكرية عميقة، وبمرجعية دينية وأخلاقية.

هناك من الدراسات والأبحاث التي تقترب كثيراً من موضوعنا هذا، نحو:

- مفهوم التخييل في أسلوب الاستعارة عند عبد القاهر الجرجاني، لمحمود يونس، ولمى راكان عبدو.

- سلطة التخييل في بلاغة الصورة عند الجرجاني، لبختي العياشي، وبليصق عبد النور.

- التخييل والتصوير بين عبد القاهر الجرجاني والفلاسفة النقاد، للدكتور ماهر مهدي هلال.

- التخييل وتجلياته في الصناعة الشعرية عند عبد القاهر الجرجاني، لتوفيق قحام، وسميرة حفحوف.

لكننا أخذنا منحى أخر في طريقة عرض الموضوع ومعالجته إذ ركزت على الاستعارة والتشبيه والمجازر.

لم يكتف عبد القاهر بمجرد الرصد والتسجيل إنما جاس على شواهده، يستنطقها، متزوداً بذائقة بلاغية ونقدية خاصة، قاصدا الدفاع عن العقل، والأخلاق، والجمال ويجعل عبد القاهر التخييل خاضعاً لحدود المنطق، يقول معلقا على بيت البحتري:

كلفتمونـــــا حـــــدود مـــــنطقكم فـي الشـعر يكفـى عـن صـدقه كذبـه

عاتب حجر أبو امرئ القيس ابنه على قول الشعر، وقال له: يا بني، إن أعذب الشعر أكذبه، فكيف تستسيغ الكذب (الجرجاني، 1983، ينظر: 299).

أراد: كلفتمونا أن نجرى مقايس الشعر على حدود المنطق، ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق، حتى لاندعى إلا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به، مع أن الشعر يكفي فيه التخييل، والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل، إذ يبعد أن يريد بالكذب إعطاء الممدوح حظا من الفضل والسؤدد ليس له، ويبلغه بالصفة حظا من التعظيم ليس هو أهله، وأن يجاوز به من الإكثار محله، لأن هذا الكذب لا يبين بالحجج المنطقية والقوانين العقلية، وإنما يكذب فيه القائل بالرجوع إلى حال المذكور، واختباره فيما وصف به، والكشف عن قدره وخسته، ورفعته أو ضعته، ومعرفة محله ومرتبته"(الجرجاني، 1983: 299).

وقد عُنى عبد القاهر الجرجاني بما يمكن أن نسميه تراكيب التخييل، في كتابه أسرار البلاغة، وقعد لها أصولا وقواعد، أبرز فيها علاقة التخييل بالفعل اللغوي، ويعدُ عبد القاهر الجرجاني من اللغويين والنقاد والبلاغيين القدماء الأوائل الذين تناولوا مصطلح التخييل، وقد أدرك دوره في تحقيق البعد المعرفي والجمالي للتراكيب اللغوية، إذ إنه يمتلك مراوغة على مستوى الشكل والمضمون، وتحقيق القصد وتحديده.

وفي لجوء المتعرض للنصوص إلى التحفظ عند القول بخبرية التركيب، أو كونه إنشاء، وما له من قدرة على إثارة السامع، وتحيله للمعنى، من خلال استحضار صورة أو صور ينفعل بها انفعالاً قائما على الرؤية أو الاستحضار، ويعرف عبد القاهر مصطلح التخييل بقوله: "هو الذي لا يمكن أن يقال: إنه صدق، وإن ما أثبته ثابت، وما نفاه نفي(الجرجاني، 1983: 296).

يرى عبد القاهر أن التخييل لا يقع في اللفظة المفردة، إذ من المحال لها أن تشكل صورة أو هيئة، ولا يقتنص العقل معنى تاما منها، لذا يرى أن التخييل واقع

في الجمل، التي عليها عبء تشكيل المعاني، التي تستثير الأذهان والعقول، إذ هي القواعد، وهي التي يبنى عليها الفهم والتواصل، وقد دارت تقسيماته للتخييل حول أربعة أنماط، وهي: المصنوع، والشبيه بالحقيقة، وهو صنيعهم إذا أرادوا تفضيل شيء أو نقصه، فتعلقوا ببعض ما يشاركه في أوصاف، ليست هي سبب الفضيلة والنقيصة، والرابع: وهو أن يدعى في الصفة الثابتة للشيء أنه إنما كان لعلة يضعها الشاعر، ويخلقها إما لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح، أو إلى تعظيم أمر من الأمور، وأما النوع الخامس فلم يصرح عبد القاهر بتناوله، ولم يضع فيه بصمته التحليلية، إنما صاغه صياغة تراكيب، واكتفى بإيراد الأشعار الدالة عليه(الجرجاني، 1983: 296- 302).

وقد ذم عبد القاهر ذلك التخييل الساذج، غير القائم على الإفادة والطلب والاجتهاد في التعرف إلى جمالية القصد من خلاله، وهو ذلك التخييل المشترك العامي، والظاهر الجلي، الذي قلت: إن التفاضل لا يدخله، والتفاوت لا يصح فيه: إنما يكون كذلك ما كان صريحا ظاهرا، لم تلحقه صنعة، ويمدح ذلك التخييل المركب القائم على اللطف والرمز... فأما إذا ركب عليه معنى ووصل به لطيفة، ودخل إليه من باب الكناية والتعريض، والرمز والتلويح، فقد صار بما غير من طريقته، واستؤنف من صورته، ويتوصل إليه بالتدبر والتأمل، وذلك قولهم - وهم يريدون التشبيه: سلبن الظباء العيون، كقول بعض العرب:

سلبن ظباءً ذى نفار طلاها ونجل الأعين البقر الصوارا

(الجرجاني، 1983: 351).

من هذه الزوايا المتداخلة والمتكاملة يمكن لنا أن نفترض أن عبد القاهر الجرجاني قد أقام نظريته عن التخييل على ركائز فكرية واجتماعية ونفسية وسياقية، وأفرط في الاستشهاد بالشعر إذ إنَّ الأمر عنده أن هناك فوارق بينهما فيما يخص التخييل، ويكون الترجيح لصالح الشعر، فالشعر - في جوهره -

حقيقة ترتدي ثوب التخييل والمجاز، فيتحرك المعنى بين الهبوط والتصاعد، قبولا أو رفضا، فإذا ما اجتمع في الشعر جمالية التخييل قبلته النفس بارتياح.

ولعل هذا المعنى ما أدركه عبد القاهر وأشار إليه في معرض تعرضه لقول ابن ميادة:

أخـــذنا بـــأطراف الأحاديـــث بيننـــا وســـالت بأعنـــاق المطـــيّ الأبـــاطح

حيث يقرر عبد القاهر أن هذا النمط المتضمن روافد التخييل هو من كلام الفحول، ومكمن التخييل في هذا الشاهد أن الشاعر قد صدم ذهن المتلقي بصورة في مقابلة صورة أخرى، الصورة الأولى تشكل حقيقة، وهي أن ناقته قد سارت سيرا حثيثا في غاية السرعة، وكانت سرعة في لين وسلاسة، والصورة تخييلية، فجرت بها، وهي صورة السيول التي وقعت من تلك الأباطح، واستشهد لتلـــك الصـــورة التخييليـــة بقـــولهم: رأيـــت أســـدا، ووردت بحـــرا، ولقيـــت بدرا(الجرجاني، 1984، ينظر: 74).

ومثل هذا الشاهد يدل على أن تراكيب التخييل عند عبد القاهر تقوم على الغرابة، وأن التخييل يرتكز إلى اللطف والدقة، يقول: "وليست الغرابة في قوله: وسالت بأعناق المطي الأباطح على هذه الجملة، ويُكثر عبد القاهر من استعمال هذه الجملة، ويعنى بها: الوجه والمعنى والنمط. وذلك لأنه لم يغرب؛ لأن جعل المطي في سرعة سيرها وسهولته كالماء يجرى في الأبطح، فإن هذا شبه معروف ظاهر، ولكن الدقة واللطف في خصوصية أفادها، بأن جعل (سال) فعلا للأباطح، ثم عداه بالباء، بأن أدخل الأعناق في البين، فقال: بأعناق المطي، ولم يقل: بالمطى، ولو قال: سألت المطى في الأباطح لم يكن شيئًا"(الجرجاني، 1984، ينظر: 75- 76).

مصطلح التخييل (ورود المصطلح):

ليس صحيحا الادعاء بأن فكرة التخييل// تراكيب التخييل ودورها في صياغة النصوص وفهمها لم تكن حاضرة في أذهان القدماء، المشتغلين بالقضايا الأدبية

أو اللغوية، أو البلاغية أو التداولية، وليس صحيحًا الزعم بأنهم قد أخذوا هذه الفكرة(عيد، 1993، ينظر: 42).

حين اطلعوا على آراء أرسطو إذ إن العرب في أشعارهم وفي محادثاتهم التواصلية والتعبيرية قد استثمروا الأبعاد التخييلية في صياغة تراكيبهم اللغوية والجمالية، ولعل امرى القيس في معلقته قد أشار إلى البعد التخيلي في العقلية العربية، يقول:

قفـــــا نبـــــك مـــــن ذكـــــرى حبيـــــب ومنـــــزل

بســـــقط اللـــــوى بـــــين الـــــدخول فحومـــــل.

حيث رسم صورة تعبيرية للوقوف والاستيقاف والبكاء والاستبكاء وذكر الحبيب وذكر المنازل، والمتأمل لعناصر البيت السابق يجد أنها جمعت المعنيين الحقيقي والتخييلي، بيد أنها تمركزت حول التخييل والجمال بصورة مكثفة.

برزت ملامح تراكيب التخييل عند عبد القاهر في مؤلفه أسرار البلاغة، فعرضها بصورة تدل على امتلاكه أبعاد تراكيب، فقد تناول التخييل، في صورة كمية موسعة، شملت من ص 76، حتى ص 336، ثم عاد ليتناولها في التفريق بين الحقيقة والمجاز، من ص 358، وينتهى عند الصفحة 404.

وقد كان " تصوره النظري للتخييل مشتقا من الشواهد الشعرية، وهو لا يعول إلا عليها، كأن النثر يخلو من التخييل، وغالبا ما كان يحلل الأشعار التي يقدمها، وتحليله إياها قد يرد تتبعا دقيقا واستقصاء، وقد يرد إشارات سريعة موجزة، وفي النادر كان يكتفى بعرض الأشعار من دون تعليق عليها، وهو يتناول هذه الأشعار مستعينا بمعرفته العامة، والبلاغية، واللغوية، والأدبية، والنقدية"(حمدي، 1998: 131).

وقد عنى عبد القاهر الجرجاني بما يمكن أن نسميه تراكيب التخييل، في كتابه: أسرار البلاغة، وقعد لها أصولا وقواعد، أبرز فيها علاقة التخييل بالفعل اللغوي، وبعد عبد القاهر الجرجاني من النقاد والبلاغيين القدامى الأوائل، الذين

تناولوا مصطلح التخييل أو التخييل، وقد أدرك دوره في تحقيق البعد المعرفي والجمالي للتراكيب اللغوية، إذ إنه يمتلك مراوغة على مستوى الشكل والمضمون، وتحقيق القصد وتحديده، ولى لجوه المتعرض للنصوص إلى التحفظ عند القول بخيرية التركيب، أو كونه إنشاء، وما له من قدرة على إثارة السامع، وتخيله للمعنى، من خلال استحضار صورة أو صور ينفعل بها انفعالا قائما على الرؤية أو الاستحضار.

ويعرف عبد القاهر مصطلح التخييل بقوله: "هو الذي لا يمكن أن يقال: إنه صدق، وإن ما أثبته ثابت، وما نفاه نفى وهو مفتن المذاهب، كمثير المسالك، لا يكاد يحصر إلا تقريبا، ولا يحاط به تقسيما وتبويبا"(الجرجاني، 1983: 296).

وفي نظرة عبد القاهر للتراكيب التخييلية صنعة واتساع؛ إذ إن " الصنعة إنما يمد باعها، وينشر شعاعها، ويتسع ميدانها، وتتفرع أفنانها وحيث يعتمد الاتساع والتخييل، ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل، وحيث يقصد التلطف والتأويل، ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذم والوصف وسائر المقاصد والأغراض، وهناك يجد الشاعر سبيلا إلى أن يبدع ويزيد، ويبدأ في اختراع الصور ويعيد، ويصادف مضطربا كيف شاء واسعا، ومددا من المعاني متتابعا"(الجرجاني، 1983: 300). لأن التراكيب اللغوية والإشارية - لاسيما الجملة الشعرية تعتمد التخييل، أو كما قال الرافعي: إن التخييل هو روح الشعر (الرافعي، 2019، 3/ 734).

والكلام السالف الذكر يشير إلى "أن التخييل يقوم على صياغة جمالية وواقعية لمعطيات مقصودة؛ فكرية أو نفسية، يقوم مؤلف النص من خلالها بإحداث إيحاء ما، بشرط أن يفهم أن الصياغة التخييلية - باعتبارها صفة - تتحرك منطلقة من الفكر أساسا، وباعتبارها صياغة لا تخضع لأهواء الانفعال الفردي، وأنها لا تغير الحقيقة، أو تعارضها، بل على العكس، يصبح الإدراك فيه من شعور النفس بالحقيقة إلى جانب التخييل"(بطي، 2019: 198)

ثانيا: المحور الأول: رؤية عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) في العلاقة بين التراكيب التخييلية والمتلقي (أبعاد التراكيب التخييلية)،

وقد اشتمل على ثلاثة مباحث، كما يلي (الجرجاني، 1983: 296، و300، و302) (الجرجاني، 1984، ينظر: 75، و76):

المبحث الأول: التراكيب التخييلية في فكر عبد القاهر الجرجاني.

المبحث الثاني: التراكيب التخييلية رؤية تأصيلية.

المبحث الثالث: التراكيب التخييلية والتلقي، ويمكن تناول ذلك على النحو الآتي:

المبحث الأول: التراكيب التخييلية في فكر عبد القاهر الجرجاني:

تتوقف رؤية عبد القاهر الجرجاني حول التراكيب التخييلية على عدد من المعايير والشروط، منها

-الصدق والشفافية:

احتفى عبد القاهر في إيمانه بورود التراكيب التخييلية في القرآن الكريم على ضرورة توافر معياري الصدق والشفافية فيها، معتبرا جدلية العلاقة بين الوعي والصورة الكتابية، وشفافية الطرح والدلالة، إذ إن كل هذا يؤثر في قراءتنا للتراكيب اللغوية، ويحدد مدى قبول الذهنية الاجتماعية والثقافية لها أو ردها.

وتجدر الإشارة إلى أن عبد القاهر - رغم احتفائه بجمالية التخييل - قد اشترط للتراكيب اللغوية معيار الصدق، وأن يكون الخبر فيها مطابقاً للمخبر، وكأنه يريد الجمع بين الرافدين، حقيقية المعاني وإمتاع نفس المتلقي من خلال التخييل، انظر إليه محتفيًا بالتخييل في كثير من شواهده، فيرى أن التخييل وقصديته تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة، " تزيد قدره نبلاً، له بعد الفضل

فضلا، وإنك تجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد، حتى تراها مكررة في مواضع، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة، خلابة مرموقة"(الجرجاني، 1983: 104).

وقد أكد الباقلاني معنى الصدق في التراكيب اللغوية، وما تحمله من أخيلة، يقول: "ثم إذا صدق الوصف انقسم إلى صحة وإتقان، وحسن وإحسان، وإلى إجمال وشرح، وإلى غير ذلك من الوجوه"(الباقلاني، 2009: 244).

ويضاف إلى إبعاد تراكيب عبد القاهر عن التخييل بعداً آخر، وهو ذلك البعد الذي يقترن فيه التخييل بالكذب، فيلبس عبد القاهر التخييل رداء الخداع، حين يجعل من التراكيب الشعرية إطارا، يحتمل وجهين من الدلالة، فيأتي التخييل ليكسو المعنى والحقائق رونقاً ولیناً، ليخفف من جفافها، بصورة تصاعدية من خلو الذهن إلى جحده، فتجاور الفكرة ما يماثلها من الصور، قال - موضحا علاقة الإعراب بالاحتياط للمعنى: "اعلم أن الإعراب على وجهين أحدهما أن يكون من قولهم أعرب عن نفسه، إذا بين ما في ضميره وأوضحه لأن حقيقة الإعراب إيضاح المعاني، والوجه الثاني: أن يكون أعرب منقولا من قولهم: عربت معدته، إذا فسدت، فكأن المعنى في الإعراب إزالة الفساد ورفع الإبهام" (الجرجاني، 1982: 1/ 97).

ألزم عبد القاهر مؤلف النص بأن يوفر لمتلقيه بيئة دلالية تخييلية صادقة، ويبدو أنه لم يرض بأن يقال: أعذب الشعر أكذبه، كما لم يرض أن يغلب على التخييل سمة الكذب والمراوغة، إذ إن هذا الأمر مما يفتح أبواب متعددة للمعنى، رافدها القول بتعدد القراءة، حال تعدد القراءات، وكأنه يرفض القول بموت المؤلف، لذا ثار على جمود المعاني، وأيقن بضرورة ألا يشترط التخييل في الكذب، رأى أنه يجوز التوفيق بين الصدق والتوسع الدلالي، بما يمكن أن نسميه: فيوض الدلالات.

• تقبل النفس للتراكيب التخييلية:

يشيع في كتب عبد القاهر إطراؤه على تصرف التخييل، ومن عباراته الدالة، قوله: "ومن اللائق بهذا الباب البين أمره"(الجرجاني، 1983: 117)، وقوله: ومن هذا الأصل(الجرجاني، 1983: 122)، وقوله: واللفظ يشارك العسل في الحلاوة، لا من حيث جنسها، بل من جهة حكم وأمر يقتضيه؛ وهو ما يجده الذائق في نفسه من اللذة، والحالة التي تحصل في النفس، إذا صادفت - بحاسة الذوق - ما يميل إليه الطبع، ويقع منه بالموافقة... وصفة التجدد في النفس بسببها، وأن القصد أن يخبر بأن السامع يجد - عند وقوع هذا اللفظ في سمعه حالة في نفسه شبيهة بالحالة التي يجدها الذائق للحلاوة من العسل، حتى لو تمثلت الحالتان للعيون، لكانتا تريان على صورة واحدة، ولوجدنا من التناسب على حد الحمرة من الحد للحمرة من الورد(الجرجاني، 1983: 152- 153).

ويصرح - في باب اللفظ والنظم - بأن التخييل "فن من القول دقيق المسلك، لطيف المأخذ، وهو أنا نراهم كما يصنعون في نفس الصفة بأن يذهبوا بها مذهب الكناية والتعريض... وإذا فعلوا ذلك؛ بدت هناك محاسن تملأ الطرف، ودقائق تعجز الوصف، وجئت إليه من جانب التعريض والكتابة والرمز والإشارة، كان له من الفضل والمزية ومن الحسن والرونق، ما لا يقل قليله، ولا يجهل موضع الفضيلة فيه"(الجرجاني، 1984، ينظر: 306).

• الغموض الفني والسمو والبلاغة:

يرجع قبول عبد القاهر للمراوغ من التخييل إدراكه أن الكلام " إذا علا في نفسه، كان له من الوقع في القلوب، والتمكن في النفوس؛ ما يذهل ويبهج، ويقلق ويونس، ويضحك ويبكي، ويشجى ويطرب، ويهز الأعطاف، ويستميل نحوه الأسماع، ويورث الأريحية، وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعةً وجوداً، ويرى السامع من وراء رأيه مرمى بعيداً، وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة"(الباقلاني، 2009: 146).

ويقوم التخييل مقام الحال الناطقة في عمليات الاستلزام الحواري، ويتولى وظيفة تعبيرية، حين يعمد المتكلم إلى حذف نمط من المعينات القصدية، محاولاً التوفيق بين طاقة التلقي والتوسع والجمال، يقول عبد القاهر الجرجاني، في فصل عقده عن الحذف: "هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر، شبيه بالسحر؛ فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة"(الجرجاني، 1984، ينظر: 146).

ثالثا: المحور الثاني: التراكيب التخييلية وجمالية التلقي في تطبيقات عبد القاهر الجرجاني، وفيه ثلاثة مباحث، هي كما يلي:

المبحث الأول: التراكيب التخييلية والمتلقي في تطبيقات عبد القاهر.

المبحث الثاني: التراكيب التخييلية ومراعاة طاقة التلقي (أفق الانتظار).

المبحث الثالث: التراكيب التخييلية وجماليات التلقي، ويمكن تناول ذلك على النحو الآتي:

المبحث الأول: التراكيب التخييلية والمتلقي في تطبيقات عبد القاهر:

أدرك عبد القاهر الجرجاني دور التخييل في توضيح القصد المركزي للمتكلم، وتثبيته في نفس متلقيه (من خلال نسخ المدركات)، كما عُنى ببعد التخييل الحجاجي، من حيث هو من آليات التأثير في الوجدان والإقناع للفكر(صولة، 2007، ينظر: 481).

وهكذا، فقد أسس عبد القاهر نظريته عن التخييل لهدف مقصود، أعلن عنه في صدر كتابيه الأسرار والدلائل، وهو محاججة الخصوم، واستمالتهم، من خلال عمليات التحليل والاستشهاد، والإقناع العقلي بالشعر خاصة، وتمركزت نظريته حول إقناع الصورة، فصارت الصورة (صورة المعنى) وسيلة أساسية من

وسائل الإقناع، فتتراءى آلية فكرية مقصودة، تستثمر للسيطرة على الخصم، فيقبل بالرأي.

وكان التخييل - في فهم عبد القاهر - يلذ النفس، من حيث إنه يكسو المعنى لباسًا جديدًا وكما أنه يستولى على قوى النفس عن طريق إلباس المعاني المتأدية إليها، ثوباً من التخييلات بعد تلوينه باللون الذي يريده الشاعر تبعا لغرضه(عيد، 1993، ينظر: 70).

ويمتلك التخييل قوة نافذة على الإقناع، لاسيما إن كان وليد النظام الثقافي للمتلقي الذي يروم مؤلف النص إقناعه، إن لصورة التخييل سلطة بما تمارسه من ضغط فكري على الآخر ليقبل القصد والرؤية، لذا فإن الميدان الأصلي (المعنى المعجمي المعياري) يمارس سلطة على الميدان المنقول إليه أو الميدان الهدف (المعنى المعار المستعمل). ولعل ما يشدنا في هذا الخطاب أن نجد استعارة قوامها "الحلم رحلة"، وعليه، تمارس في هذه القصيدة تصوراتنا المتعلقة بالرحلات سلطة على فهمنا للحلم وتوجيهنا، ويدعم مذهبنا هذا في التأويل رؤية لا يكوف وتورنر من الاستعارة، فهي تمثل عندهما "سلطة على أنظمتنا التصورية"(Lakoff، 1988: 60).

وقد انطلق عبد القاهر من أن القصد المركزي لمؤلف النص إنما يتشكل من قوالب لفظية وإشارية وسياقية، وخيال، وأيقن أن التخييل هو روح الكلام، الذي يحرك عملية التواصل كلها، وذلك القول يجعل التخييل مرتبطا بمعطى خارجي، وهو الحقيقة، ومرتبطاً في جانبه الآخر بعملية داخلية، تصل بالفكر والنفس معاً(عصفور، 2009، ينظر: 312 - 313).

تهدف تراكيب عبد القاهر في التخييل إلى توفير حالة من الإقناع الفكري والنفسي عند المتلقي، لذا فقد قسم عبد القاهر المعاني إلى قسمين، أحدهما يعتمد المعاني العقلية (المعنى العقلي) (فالمرجع فيه إلى العقل المحض، وليس للغة فيه حظ، فلا تخلى ولا تمر، والعربي فيه كالأعجمي، لأن قضايا العقول هي القواعد والأسس التي يبنى عليها غيرها، والأصول التي يرد ما سواها

إليها(الجرجاني، 1983، ينظر: 382-383)، والآخر يعتمد على الصورة والجمال (المعنى التخييلي)، وأما المعنى العقلي، فهو الذي يقره العقل، ويقوم على حجة صحيحة، ويقصد به العقل الصحيح، الذي مجراه في الشعر والكتابة(الجرجاني، 1983، ينظر: 293).

وهذا معناه أن التراكيب اللغوية، بوصفها ناقلة للمعارف والحقائق، فهي - في هذا الجانب معانٍ مجردة. تشكل الحجج والآراء المعرفية التي يشهد لها العقل بالصحة، ولا يكون في حقيقتها تجادل، وتكون فيما لا يرده عقل، ولا ينفيه طبع سليم.

وأما معاني التخييل؛ فهي ما وضعه واضع، ولم يعترض عليه معترض، ولا يستطاع الحكم بصدقه أو كذبه وفقا للعرف، يقول: "هي طبقات، ويأتي على درجات؛ فمنه ما يجيء مصنوعا قد تلطف فيه، واستعين عليه بالرفق والحذق، حتى أعطى شبهاً من الحق، وغشى رونقاً من الصدق، باحتجاج تمحل، وقياس تصنع فيه وتعمل" ومثاله قول أبي تمام:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

(أبو تمَّام: 567/1)

فهذا قد خيل إلى السامع أن الكريم، إذا كان موصوفاً بالعلو والرفعة في قدره، وكان الغني كالغيث في حاجة الخلق إليه، وعظم نفعه، وجب بالقياس أن يزل عن الكريم، كما يزل السيل عن الطود العظيم، ومعلوم أنه قياس تخييل وإبهام ولا تحصيل وإحكام (الجرجاني، 1983، ينظر: 296).

ويستعين عبد القاهر في الإقرار بقدرة المؤلف على إيصال معناه لمتلقيه بالقوة المتخيلة، وهي قوة تتوسط بين الحس والعقل، تلك القوة يستمد منها المؤلف قوة دلالته، وتعمقا في عرض الأفكار بتفاصيلها، بمعنى آخر: قوي تتوسط قوى النفس، فتأخذ معطياتها من الحس، وتعيد صياغتها في ضوء قواعد

العقل، فتصبح فعلا تخيليا، لأن القوة المتخيلة هي القوة النفسية الوحيدة التي لها القدرة على محاكاة الأشياء المحسوسة(عصفور، 2009، ينظر: 240).

ومن الأسس التي أقام عليها عبد القاهر الجرجاني نظريته في التخييل أن المعنى المتخيل خارج عن النظام اللغوي ومنطقية العقل، وهو معتمد على الهيئة أو الصورة التعبيرية، لا يمكن بحال أن يخضع في دلالته المقصودة إلى أعراف المجتمع، أو التفسيرات المألوفة عند ملتق ما، أو جماعة لغوية معينة، وهو – مع ذلك – طريف، غريب، مفاجئ، غير مألوف، معتمد على الخواطر والأفكار.

لقد تقبل عبد القاهر الثنائية الحادة بين التخييل والتصديق فيما يعرض له من أشعار، ونقلها عن المستوى المنطقي إلى المستوى البلاغي؛ فوازن بين العقلي والتخييلي من المعاني، وتنطوي موازنته بين هذين النوعين على الثنائية الأساسية الكامنة في تراكيب التخييل نفسها، وأهم من ذلك أنها موازنة تنحاز – صراحة – إلى العقلي، فتفضله على التخييلي، من حيث المحتوى المعرفي والتأثير الأخلاقي(عصفور، 2009، ينظر: 327).

وقد قرن عبد القاهر العقلي من المعاني بكل ما يشهد له العقل بالاستقامة، وتتضافر العقلاء في كل أمة على تقريره، والعمل بموجبه، وقرن التخييلي بما يرده العقل(الجرجاني، 1983، ينظر: 291).

وتنطلق تراكيب التخييل عند عبد القاهر الجرجاني من أن المعنى // القصد الكلي المضمن في فعل القول هو الأساس، وهو المنطلق من ذهن المؤلف أو نفسه، القار في نفس عقل المتلقي أو نفسه، وكان عبد القاهر ينتصر للمعنى على حساب اللفظ، ذلك المعنى القائم على التعقل والفكر والجمال.

وإذا كانت بلاغة الحجاج – عند بيرلمان وتيتكا – تقوم على أن من واجب المؤلف أن يقوم لمتلقيه بيانا لقصده، وأن يتحرى كل ما يعين المتلقي على فهم المقاصد، من مبدأ الكمية والهيئة، والجودة، فقد سبق إلى ذلك صاحب تراكيب النظم التي تحمل المضامين التخييلية، حين عد قدرة مؤلف النص على توفير بيان لقصده، مما يتفاضل به مؤلف عن مؤلف، يقول في هذا الصدد: "والبيان والبراعة

وكل ما شاكل ذلك، مما يعبر به عن فضل بعض القاتلين على بعض؛ من حيث نطقوا وتكلموا، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد(الجرجاني، 1984، ينظر: 43).

ومن يطالع كتاب الدلائل لصاحب تراكيب النظم يجد تناولا لهذا الأمر، الذي أكد تكامل عناصر الجمال في إبراز القصد (مبدأ الهيئة)، من أجل تحقيق وحدة النص، وكل عناصر النص ومكوناته هي أدوات وأنساق تجتمع في توضيح غرض النص وتوضيحه.

يقول في هذا الشأن: وهل تشك، إذا فكرت في قوله - تعالى: "وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين" [هود:44]

فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع، إنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة.

وهذا يدل دلالة واضحة على ما أفاد عبد القاهر من المواد اللغوية المطروحة على مستوى الكثرة أو القلة في الاستعمال: في وضع الأصول وبناء الفروع، وحشد الشواهد لها، لتكون القسم الأول من علم البلاغة حيث لم تزل البلاغة تكمل شيئا فشيئا، إلى أن محض عبد القاهر زبدتها، وهذب مسائلها، ورتب أبوابها(مطلوب، 1964، ينظر: 117).

ونستطيع أن نقول: إن تناول عبد القاهر لمعطيات الآية الكريمة دل على وجود تراكيب حجاجية، لا تقوم على نمط تعبيري عشوائي، وليست باهرة في استعمال أداة أو تركيب من دون سواه فحسب، إنما جعل عبد القاهر من نظريته الحجاجية كيانا مشكلا من ظواهر عدة، رفدها الصياغة والانتخاب والتناسق الداخلي، بيد أن حجاج عبد القاهر الجرجاني في الآية الكريمة يبدو أشد ميلاً

إلى حجاج خالي الذهن. وإن كان يعرض تحليلا منطقيا، يخاطب به الشاك والمتردد، فيعتمد على الحجج اللفظية والأدلة العقلية في إقناع الخصوم.

ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم أن كان النداء بـ: (با) دون أي، نحو: يا أيتها الأرض، ثم إضافة الماء إلى الكاف ودون أن يقال: ابلعي الماء، ثم أن أتبع الأرض وأمرها بما هو من شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها... في نص طويل ساد فيه عبد القاهر العديد من مظاهر الحجاج اللغوي، القائم على تراكيب دلالية في حجاجه البلاغي(الجرجاني، 1984، ينظر: 45- 46)، وقد حققت هذه التوليفة اللغوية تجنباً لحدوث غموض عند المتلقي، فقد عرضت القوالب اللغوية في الآية الكريمة حقائق معرفية، مؤيدة براهين وأدلة، وحجج، وكأنه يحاجج معاندا، وقد جند عبد القاهر من نفسه خصما.

إن البحث في عملية التخييل من أهم خصائص الخطاب الحجاجي عند عبد القاهر الجرجاني، مراعيا بذلك الأثر النفسي عند المتلقي، ورد فعله في دائرة المتوقع واللامتوقع، واحتفاء الخطاب الحجاجي للخيال يستهدف في المقام الأول الاستحضار النفسي لذات المتلقي.

ومن إدراك عبد القاهر للدور الحجاجي للخيال عقد قسما مختصا به، أطلق عليه: قسم التخييل، وجعله خاصا بالذي لا يمكن أن يقال: إنه صدق، وإن ما أثبته ثابت، وما نفاه منفى... وقد جعله عبد القاهر درجات، وجعل منه ما يصنع بتلطف، ويستعان عليه بالرفق والصدق، حتي أعطى شبها من الحق، وغشى رونقا من الصدق، باحتياج تمحل، وقياس تصنع فيه وتعمل، وهو يوفر خيالا للسامع، وقياس شبه، وتخيل.

إن إدراك القصد من التخييل قائم على مقاييس حدود المنطق، الذي يأخذ النفوس فيه بالقول المحقق: حتى لا ندعي إلا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به، ويُلجى إلى موجبه، مع أن الشعر يكفي فيه التخييل، والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل(الجرجاني، 1983، ينظر: 298- 299).

ويتأكد احتفاء عبد القاهر بالدور الحاسم للخيال في إقناع المتلقي، وأن التخييل من وسائل الحجاج التي تعمل على إقناع المتلقي والتأثير فيه، حين أفرد باباً لتمكن المعني من النفس، وأن آليات التخييل تجعل المعنى أوضح، وأقدر علي استدعائه، يقول: "فقد حصل في هذا الباب أن الاسم المستعار كلما كان قدمه اثبت في مكانه كان موضعه من الكلام أضمن به وأشد مما هو عليه(الجرجاني، 1983، ينظر: 269).

ويرى عبد القادر الجرجاني أن التخييل وسيلة حجاجية لأجل توجيه الحجاج، نحو عقل المتلقي لنقله من الحالة التصويرية إلى الإقناع(الجرجاني، 1983، ينظر: 95).

وقد أدرك عبد القاهر الجرجاني أن المعاني التي يستجلبها التخييل تفارق المعاني الجافة المجردة منه، يقول معلقاً على الآية السالفة الذكر: "وقول الناس: قتل البعض إحياءٌ للجميع، فإنه، وإن كان قد جرت عادة الناس بأن يقولوا في مثل هذا: إنهما عبارتان معبرهما واحد. فليس هذا القول قولا يمكن الأخذ بظاهره، أو يقع لعاقل شك أن ليس المفهوم من أحد الكلامين المفهوم من الآخر"(الجرجاني، 1984، ينظر: 261).

والتخييل آلية بلاغية تعمل على توضيح الفكرة، ليمنح الخطاب طابعا جماليا، يؤثر في نفوس المخاطبين، فإذا مثلنا بالكتابة وجدناها اسما جامعا أطلق، وأريد معناها مع جواز إرادة ذلك المعنى، وهي وسيلة قوية من وسائل التأثير والإقناع؛ بيد أنها مختلفة عن الاستعارة والتشبيه في إمكانية اجتماع الحقيقة والمجاز فيها، حيث إن بنية الكناية تشتمل على معنين؛ إذ إن هناك معنى حقيقي تعثر عليه في ثنايا الخطاب، وهناك معنى مجازي يتواري في بنية الخطاب العميقة(رابح، 2006، ينظر: 5/ 184).

إن توظيف التخييل - في الحجاج - يكسب النص طاقة حجاجية يستطيع من خلالها إقناع المتلقي، وجعله يذعن لما يقول لأن للخيال قدرة في إثبات

المعاني، فهي بمثابة الدليل الجمالي، للوصول إلى المقاصد، فهو يؤثر في طبيعة الكلام، ويجعله أكثر قدرة على إقناع المتلقي ومن خلال قيمة التخيل نفسها، لأنها تقدم المعنى مع الدليل ولا يقتصر دور التخييل على الجانب الجمالي والتزييني للغة - أو للتراكيب الملفوظة في علاقة الدوال بمدلولاتها - إنما يتعداه إلى التأثير في المتلقي ومحاولة استمالته وإقناعه(سماح: 47).

وليس من شك في أن حديث عبد القاهر عن ثبات المعني ووضوحه في ذهنية المتلقي، ولصوقه بالنفس احتفاء بالتعدد النمطي الطاقات لقراءة النص الواحد، بغية إدراك قصد قد يتعدد، أو يختلف.

فقد جعل التخييل وسيلة من وسائل البيان والتوضيح، وأن في التخييل من التفاصيل، أو الإقناع التأملي، أو البصري، ما لا يمكن بيانه، إلا بعد العلم بحقيقته.

انظر إليه يقول، في معرض تناوله لقوله - تعالى: "واشتعل الرأس شيباً " [مريم:4 أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله - تعالى: "واشتعل الرأس شيباً ".لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إليها، ولم يروا للمزية موجبا سواها، هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم، وليس الأمر على ذلك، لمجرد الاستعارة... ذلك أنك تعلم أن اشتعل للشيب في المعنى، وإن كان هو للرأس في اللفظ، وأن هذا أمر يقصده المؤلف، وأن هذا الإسناد يفيد أنه مع لمعان الشيب في الرأس، الذي هو أصل المعنى، وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استغرقه وعم جملته، حتى إنه لم يبق من السواد شيء؛ أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به، وذكر عبد القاهر أن هذا الأمر يذهب بخيال المتلقي مذهب الشمول للصورة(الجرجاني، 1984، ينظر: 101).

وقد أورد عبد القاهر في كتابيه الأسرار والدلائل ما يُشير إلى دور التخييل في الحجاج، محتفيا بالبعد الاجتماعي لأنماط التلقي، فالتخييل يتيح للدلالة التدرج عبر أنساقها، في سلمية دلالية متتابعة، وكان التخييل من أعمدة هذه السلميات الدلالية، التي تؤدي دور الممهد الدلالي لدلالة أكبر.

• المبحث الثاني: التراكيب التخييلية ومراعاة طاقة التلقي (أفق الانتظار):

يتحدث فيه عبد القاهر عن تأثر التخييل على إدراك المتلقين للقصد المركزي، حين يعرض على قرائحهم تراكيب لغوية تعرض لهم صوراً لم يروها من قبل، فهو يقسر النفس، فيملك التخييل قدرة توليدية تحويلية، فيحول التراكيب من معنى إلى معنى آخر، من الجمال إلى القبح، ومن التسطيح إلى التعمق، ومن القبول إلى الرفض، ومن صياغة لغوية إلى برهان، يقنع العقل، ويوفر برهاناً، يعضد القوالب اللغوية في عرضها للقصد في رداء جميل، يقول: وهكذا قول البحتري:

طلعت لهم وقت الشروق فعاينوا
سنا الشمس من أفق ووجهك من أفق
وما عاينوا شمسين قبلهما التقى
ضياؤهما وفقا من الغرب والشرق.

معلوم أن القصد أن يخرج السامعين إلى التعجب لرؤية ما لم يروه قط، ولم تجر العادة به؛ ولم يتم للتعجب معناه الذي عناه، ولا تظهر صورته على وضعها الخاص، حتى يجترئ على الدعوىٰ جرأة من لا يتوقف، ولا يخشى إنكار منكر، ولا يحفل بتكذيب الظاهر له، ويسوم النفس - شاءت أم أبت.

ويقوم التخييل مقام الحال الناطقة في عمليات الاستلزام الحواري، ويتولى وظيفة تعبيرية، حين يعمد المتكلم إلى حذف نمط من المعينات القصدية، محاولاً التوفيق بين طاقة التلقي والتوسع والجمال، يقول عبد القاهر الجرجاني، في فصل عقده عن الحذف: "هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر، شبيهٌ بالسحر؛ فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة "(الجرجاني، 1984: 146).

وفي حقيقة الأمر عدَّ عبد القاهر التخييل ضربا من ضروب الصنعة، التي تدل على حذق الشاعر وزيادة إبداعه، وقد نال موضوع التعريف والتنكير عناية علماء النحو أمثال سيبويه وابن جني والزجاجي وغيرهم(سيبويه، 1983، ينظر: 2/ 5-8)(ابن جني، 2000، ينظر: 1/ 332).

كما حاز على عناية علماء البلاغة الأوائل، وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني الذي كانت له وقفات وتأملات حسنة عن التعريف والتنكير في كتابه دلائل الإعجاز، تحت عنوان (الفروق في الخبر)، فقد ذكر فوائد وفرائد متنوعة لتعريف الخبر وتنكيره، كما فرق بين الخبر المعرف الألف واللام والخبر المعرف بالموصولية، وبسط القول بسطاً نفسياً(الجرجاني، 1984، ينظر: 177-201).

وقد أبان عن ذلك في معرض تناوله لقول المتنبي:

واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتني القمرين في وقت معا

أراد: فأرتني الشمس والقمر، ثم غلب اسم القمر، كقول الفرزدق:

أخذنا بأفاق السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

يقول: "لولا أنه تخيل الشمس نفسها، لم يكن لتغليب اسم القمر والتعريف بالألف واللام معنى"(الجرجاني، 1983: 332)

وقد يكون التخييل سببا في تنكير المعنى، رغم تعريف أدواته وقوالبه، مما يسبب استكراهاً للمعنى، قد يوهم ظاهره خلاف باطنه، ويجانب الاستقامة وتمام الإفادة؛ يقول معلقا على قول أشجع السلمي:

غربت بالمشرق الشمس فقل للعين تدمع

ما رأينا قط شمساً غربت من حيث تطلع

فقد خيل إليك شمس السماء، وقوله - بعد: ما رأينا قط شمساً. يفتر أمر هذا التخييل، ويميل بك إلى أن تكون الشمس في قوله: غربت بالمشرق الشمس غير شمس السماء، أعنى غير مدع أنها هي، وذلك مما يضطرب عليه المعنى ويقلق.

ويجعل عبد القاهر الجرجاني الإبانة في تنكير الشمس، يقول: "وأظن الوجه فيه أن يتأول تنكيره للشمس في الثاني على قولهم: خرجنا من شمس حارة؛ ويريدون في يوم كان للشمس فيه حرارة وفضل توقد، فيصير كأنه، قال: ما عهدنا يوماً غربت فيه الشمس، من حيث تطلع، وهوت من جانب المشرق، وكثيراً ما يتفق في كلام الناس ما يوهم ضرباً من التنكير في الشمس، كقولهم: شمس صيفية" ومثله: والله لا طلعت شمس ولا غربت (الجرجاني، 1983، ينظر: 329-330).

كما فصل القول في التعريف بالموصول، وركز حديثه على (الذي)، وأفرد الحديث عنها في فصل، وقال في مقدمته: (الذي)، وأفرد الحديث عنها في فصل، وقال في مقدمته: (اعلم أن لك في (الذي) علما كثيرا، وأسرارا جمة، وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها اطلعت على فوائد تؤنس النفس، وتثلج الصدر، بما يقضي بك إليه من اليقين، ويؤديه إليك من حسن التبيين...) (الجرجاني، 1984: 199)

وربما يظهر في بعض الأسلوب القرآني أن الاسم المنكر بمنزلة المعرف وبالعكس خاصة إذا كانت اللام للجنس، على أن الاسم يكتسب قيمته للسياق الذي سيق فيه، وهذا ما بينه عبد القاهر الجرجاني في ثنايا حديثه عن تراكيب النظم من ذلك تنكير لفظ الحياة في قوله تعالى { ولتجدنهم أحرص النَّاسِ عَلَى حَيَاة} [البقرة: 96] قال: إذا أنت راجعت نفسك وأذكيت حسك وجدت لهذا التنكير، وإن قيل: على حياة، ولم يقل: على الحياة حسناً وروعة ولطف وتجدك تعدم ذلك مع التعريف، وتخرج عن الأريحية والأنس إلى خلافهما(الجرجاني، 1984، ينظر: 288).

ولم ينحُ عبد القاهر بأصول التخييلية عن الاستعمالات العرفية للغة والتراكيب اللغوية، يقول - في تعليقه على بيتي الفرزدق:

أبي أحمد الغيثين صعصة الذي متى تخلف الجوزاء والدلو يمطر
أجار بنات الوائدين ومن يجر على الموت تعلم أنه غير مخفر

وإن أردت أن تعرف مقدار ماله من القوة في هذا التخييل، وأن مصدره مصدر الشيء المتعارف، الذي لا حاجة به إلى مقدمة يُبنى عليه، نحو أن تبدأ فتقول: أبي نظير الغيث وثانٍ له وغيث ثانٍ. ثم تقول: وهو خير الغيثين، لأنه لا يخلف إذا أخلف الأنواء، فانظر إلى موقع الاسم فإنك تراه واقعا موقعا لا سبيل لك فيه إلى حل عقد التثنية وتفريق المذكورين بالاسم، وذلك أن (أفعل) لا تصح إضافته إلى اسمين معطوف أحدهما على الآخر(الجرجاني، 1983، ينظر: 333).

ويستند عبد القاهر إلى التحليل في إزالة الشكوك لدى ذهنية المتلقي، حتى يوفر له بيئة إقناعية، تتجاوز حدود الشكل إلى عمق الدلالة، وكأنه – هنا يدفع المتلقي دفعا؛ ليسبر أغوار النص، وصولاً للمقاصد المضمونية، وما حواه فعل القول من الفعل التضميني، ليتحول إلى فعل تأثيري، ومن ثم فعل منجز.

يقول: "فقد اتضح – إذن – بما لا يدع للشك مجالاً، أن الألفاظ لا تتفاضل، من حيث هي الفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة "(الجرجاني، 1984: 46).

ولسنا نجاوز الحد حين تقرر أن عبد القاهر الجرجاني حلل مكونات الآية الكريمة على أساس من التحليل والعقل، وقد جعل من مكونات الآية دوالً إفرادية قادرة على حمل صوت النفس إلي المتلقي، واللافت في هذا التناول هو أن عبد القاهر ارتكز على بلاغة الإقناع في التناظر، تلك البلاغة التي تقوم على تواشج التراكيب بعضها مع بعض، وتضافرها لحمل أبعاد النفس، فيحرص على استحضار المتلقي، ليعرض صدي نفسه.

يقول: "ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك، في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر... فتجد لها من الثقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير، أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة، ومن الإيناس والبهجة... كما أنه يستمر في استحضار ذات المتلقي ونفسه إلى رحاب الصياغة، متوجها إليه بالحديث، قائلا: "ومن أعجب ذلك لفظة (الشيء) فإنك تراها مقبولة حسنة في موضع، وضعيفة مستكرهة في موضع،... ثم يعتمد الشاهد

والدليل، يسوقه للمتلقي، حتى يناظر بين الأمثال، يقول: وإن أردت أن تعرف ذلك، فانظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

ومن مالئ عينيه من شيء غيره

إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمي

وقول أبي حية:

إذا ما تقاضي المرة يوم وليلة تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

ثم يستحسن عبد القاهر الجرجاني نبل التراكيب وسمو دلالتها وجودة صياغتها، في إقناع المتلقي، ومن البراهين التي استدل بها عبد القاهر على هذا الأمر، قبول النفس للصياغة والدلالة، لابتعاد التراكيب عن الاضطراب، وقد استعمل عبد القاهر حروف العطف المتوالية في الآية الكريمة، لتعزيز إقناع المتلقي، مبتعدة به عن الارتياب واللبس والغموض.

• السياق ومراعاة طاقة التلقي:

من الملفت للنظر أن أبعاد التراكيب التخييلية عند عبد القاهر الجرجاني هي أبعاد نفسية أكثر من كونها فكرية سياقية، إذ إن تصوير المعاني بالتجسيم أو بالتشخيص هي عملية نفسية، تؤثر في المتلقي إقناعا وإمتاعا وانفعالا، لأن النفس تأنس بالعلم الذي يأتيها من طريق الحواس، فأنس النفوس موقوف على أن تردها في الشيء، تعلمها إياه إلى شيء آخر، هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم(الجرجاني، 1983، ينظر: 121).

وكان عبد القاهر قد أقام نظريته الإقناعية على التخييل المتعقل، مبتعدا بذلك قدر الإمكان عن الانحصار في بوتقة الإقناع الشكلي ومستثمرا لغة المجاز، التي تحركها أرض التخييل، فيتحرك الشريكان الملفوظات والصورة في تشكيل رؤية خاصة، تتصاعد درجة اقتناصها كلما تصاعدت جدية الضفيرة بين التخييل والعقل أو النفس.

والمطالع لما عرضه عبد القاهر من دقائق، يدرك أن للجرجاني تراكيب خاصة، تقوم على أسس من قوة التخييل، تلك القوة التي تحقق رابطا فكريا ونفسيا بين القصد والمحاكاة، وقد قام منجزه هذا على قدرة المؤلف على التأثير في متلقيه، مما عدا من مسار الأبعاد الكلامية والبلاغية. وقد راعى عبد القاهر الخلفيات الثقافية للمؤلفين، وأن جميع الفكر ليست على نسق واحد، وكذلك المتلقين، وإنما خبراتهم مستمدة من معايشة النصوص، فإن هناك المتلقي السطحي، وهناك الضمني، والمتعمق، والناقد.

بدا حجاج عبد القاهر - في هذه الآية - معتمداً على مبدأ الهيئة الشكلية الناجم عن سلطة النص، التي وفرتها قوة مؤلفه وتفرده، فقد عمد إلى إقناع متلقيه، من خلال إبهاره بجمال الصياغة، وتفرد تراكيبه، مؤكدا على أنه متى ما أراد المؤلف إقناع متلقيه لزمه تحقيق تماسك القوالب النصية وتناسقها الدلالي.

من خلال هذه الآية - حجاج عقلية، يستنصر بالدليل، ولا يهاجم طاقة التلقي، فكأن يخاطب نمطاً من القراء خالي الذهن، انظر إليه يقول: "لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة وهكذا".

ومن أجمل ما عرضه عبد القاهر من آليات حجاجية - في هذه الآية - هو حديثه عن البنية الكلية للنص، وأن اقتناع المتلقي مرهون بقدرته على إدراك المعنى الكلي للنص، مطالبا إياه عدم التسرع، مجبرا له أن يتابع معطيات النص التصاعدية، دافعاً له إلى التوقف عن الحكم إلا عقب استقرائه القوالب اللغوية والإشارية والسياقية، مشيراً إلى أن أدق الأمور قد تؤثر في عمليات التحاجج.

يقول السكاكي في هذا الصدد: "وإذا قد وقفت على البلاغة، وعثرت على الفصاحة المعنوية واللفظية: فأنا أذكر - على سبيل الأنموذج - آية تكشف لك فيها عن وجوه البلاغة والفصاحتين، ما يسترها عنك، ثم أن ساعدك الذوق: أدركت منها ما قد أدرك من تحدوا بها، وهي قوله - علت كلمته: "وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين". [هود:44]

والنظر في هذه الآية قائم على أوجه عديدة، من أربع جهات منها، النظر فيها من جهة البيان، ومن جهة علم المعاني، وهما مرجع البلاغة، ومن جهة الفصاحة المعنوية، ومن جهة الفصاحة اللفظية، فأما النظر فيها من جهة علم البيان، فيكون النظر فيها من جهة الاستعارة والكناية والمجاز، وأن الله - تعالى - لما أراد رد ما انفجر من الأرض رده كما كان، فارتد، ولما أراد - تعالى قطع طوفان الماء، فانقطع... فبني الكلام على تشبيه المراد بالمأمور الذي لا يتأتى منه، لكمال هيبته، والعصيان، وتشبيه كون المراد بالأمر الجزم النافذ في تكوين المقصود، تصويرا لاقتداره العظيم، وتجلي إبداع المجاز في الخطاب للجمادات، وهو: يا أرض، ويا سماء، وبلع الأرض... ليصرف توهم الواهم، فكل ذلك لا يتأتى إلا من ذي قدرة.

أما النظر فيها من جهة علم المعاني: فقد أفادت كل كلمة في موقعها، حتى وإن حركت بالتقديم أو التأخير، واختار الخطاب القرآني نداء الجمادات به (يا)، من دون سائر أخواتها، لأنها أكثر في الاستعمال، وأنها دالة على بعد المنادىٰ، الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة، وهو تبعيد المنادي المؤذن بالتهاون به؛ ولم يقل: يا أرض، بالكسر، لإمداد التهاون، ولم يقل: يا أيتها الأرض، لقصد الاختصار، مع الاحتراز عما في (أيتها) من تكلف التنبيه غير المناسب للمقام، وقد اختار الخطاب القرآني لفظي الأرض والسماء؛ لأنهما أخف وأدور، وقد اختير لفظ: ابلعي، على ابتلعي؛ لأنه أخصر، ولمجيء خط التجانس بينه وبين أقلعي، أوفر...

وقد جرى الخطاب القرآني في ترتيب هذه الآية على مقتضى اللازم، فيمن كان مأمورا حقيقة، من تقديم التنبيه؛ ليتمكن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادىٰ؛ قصدا - بذلك - لمعني الترشيح، وقدم أمر الأرض، لنزولها منزلة الأصل، وقد عمد الخطاب القرآني إلى الحذف الدال على الذكر، وكأنه قال: قيل: يا أرض

ابلعي ماءك، فبلعت، وقيل: يا سماء أقلعي عن إرسال الماء، فأقلعت عن إرساله... وغيض الماء النازل من السماء ففاض.

• التراكيب التخييلية وتقريب المعنى:

يظل التخييل في تراكيب عبد القاهر مقربا للمعنى، وكأنه صورة أخرى غير مباشر له، فيجعله لا يفقد صفة الحسية، ومهما تباعدت تلك الصورة - وجرت المتلقي إلى أنساق جزئية - تظل مرتبطة بالمعنى الأول، كما إنها لا يمكن لها أن تبتكر معنى جديد على سبيل المغايرة، فكل ما يصل إليه المتلقي من خلال التخييل لا يمكن تشكيله أو التعبير عنه إلا من خلال جزئيات وعناصر أدركها العقل والحس(عصفور، 2009، ينظر: 244).

وقد أدرك عبد القاهر هذا المعنى، يقول: "فإذا قلت: مررت بزيد الظريف، وذكرت الصفة لئلا يلتبس من تعني بمن لا تعني(الجرجاني، 1982: 2/ 920-921)، إنَّ قوله: (وكما يكون لزيد) لعل الصحيح: (كما يكون الزيد).

فالجرجاني ذكر أن المجيء بالصفة لدفع توهم وإزالة لبس حاصل من المتبوع؛ ومن ثم يؤتى بالصفة احتياطا لذلك المعنى، وتمكينا له وتثبيتا.

إذ يرى أن الاستعارة وسيلة ناجحة من وسائل الحجاج، التي تعمل على اقناع المتلقي والتأثير فيه، بدا ذلك من كلامه، فاستعار للجمادات معنى الفعل، والتخاطب، والمقدرة، فطالب الأرض والسماوات، ومنح الماء قدرة على الانحسار والغور، يقول: فقد حصل - في هذا الباب - أن الاسم المستعار كلما كان قدمه أثبت في مكانه، كان موضعه من الكلام أضمن به، وأشد مما ما عليه، فأمر التخيل فيه، ودعوى المتكلم له أظهر وأتم(الجرجاني، 1983، ينظر: 279) وهي خطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها(الجرجاني، 1983، ينظر: 26).

ويمتلك التخييل قوة نافذة على الإقناع، لاسيما إن كان وليد النظام الثقافي للمتلقي الذي يروم مؤلف النص إقناعه، إن لصورة التخييل سلطة بما تمارسه من ضغط فكري على الآخر ليقبل القصد والرؤية. وإذا كانت الاستعارة هي إدراك

تصور ما عن طريق تصور آخر أو القبض على مفهوم ما عن طريق مفهوم آخر، لذا فإن الميدان الأصلي (المعنى المعجمي المعياري)

وتنطلق تراكيب التخييل عند عبد القاهر الجرجاني من أن المعنى (القصد) الكلي المضمن في فعل القول هو الأساس، وهو المنطلق من ذهن المؤلف أو نفسه القارّ في نفس عقل المتلقي أو نفسه، وكان عبد القاهر ينتصر للمعنى على حساب اللفظ، ذلك المعنى القائم على التعقل والفكر والجمال، يقول: "إن الألفاظ خدم للمعاني، وكانت المعاني هي المالكة سياستها المستحقة طاعتها، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنة الاستكراه وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين"(الجرجاني، 1983: 77).

وغير خافٍ أن في كلام عبد القاهر بجعل التخييل مرهون بغاية أمرين، هما: استحضار طاقة التلقي بالقوة، ومعاونة المتلقي، حتى يصل إلى إدراك المقاصد، بالتعرف على تفاصيلها، فهو يؤكد فكرة الحجاج البصري (الإقناع بالنظر)، التي تحتفي بذهنية التلقي، وتتمركز حول القصد الحقيقي.

وأبرز صور التخييل التي أوردها عبد القاهر - في هذا الموضع إنما تمثلت في التشبيه التمثيلي، الذي استثمره عبد القاهر في زيادة التأكيد على فكرته، حين ناظر بين المتغلغل في زوايا العلم بمن تتبع الماء؛ حتى عرف منبعه.

• التراكيب التخييلية وإبراز المعاني الخفية:

يتوسع عبد القاهر في تناوله لأبعاد تراكيب التخييل، ولعل هذا ما يفهم من إشاراته إلى المعاني الخفية البعيدة، التي يتضمنها فعل القول، أو يشير إليها السياق، كما يلزم مؤلف النص بأن يصنع تخييلا أقرب ما يكون إلى الوضوح والصدق، بحيث يقبله العقل والأخلاق الجميلة (أو سائر المعاني التي تجعل الأشخاص أوعية لها)(الزمخشري: 286)، وليس معنى التوسع هنا أن يعمد

مؤلف النص إلى إيراد تراكيب لغوية ممزوجة بخيال غريب مستغلق، لأن المعنى الحقيقي عند الجرجاني خارج عن التخييل المفرط.

وقد أدرك عبد القاهر أن عملية التحاجج عملية وظيفية تعبيرية، تستلزم روافد تركيبية، وليست بالعملية الفردية(عبد الحميد، 2020، ينظر: 42).

وإدراكه هذا قائم على إيمانه بأن عملية التحاجج عملية التعلق بالبعد الاجتماعي للمتخاطبين، وفيها يتم تحديد زاوية المتكلم ووضعه وأحكامه، وتشفيره الدور علاقته في المقام، وحوافز قوله لشيء ما، في علاقته مع مخاطبه(إبريز، 2005: 78).

لذا فقد طالب عبد القاهر مؤلف النص أن يعرض قصده في هيئة واضحة، بعيدة عن الخلل والتعمية، ويقدم للمتلقي ما يدفع الإلباس والوهم عنده، وأن يراعي السائد من الثقافات والأفكار (الفكر الجمعي).

ويؤكد عبد القاهر أن التخييل يسهم في وضوح القصد في ذهنية المتلقي، حسب طاقتها، السطحية أو المضمونية، وأن التخييل يقدم حجة يقينية، تزيل الاحتمالات الدلالية المتواترة والمحتملة وغير المقبولة، من خلال قيام المتلقي بعمليات الترجيح والموازنة بينها، فإذا ما توافرت له أنماط ترجيحية أخرى، دفع عنه اللبس والغموض.

• التراكيب التخييلية وقصدية الاحتياط للمعنى:

جعل عبد القاهر قصدية المؤلف توظيف التراكيب التخييلية في الخطاب التواصلي أن يكون ذلك من طرائق الاحتياط للمعنى الإشارة الحسية، فيما لا يحتاج إلى إشارة؛ احتياطا، وتمكينا للمعنى، وخوفا من انصراف الذهن إلى شيء آخر، وإن كان الاحتمال بعيداً(السامرائي، 2021، 151) وألمح الجرجاني إلى دور البيان بعد الغموض والإبهام في توجيه الدلالة، قبل المجيء بصلة الموصول؛ فقال: "فقول: (مررت بزيدٍ الذي أبوه منطلق) تجدك قد أبنت زيداً من

غيره، بالجملة التي هي قولك: (أبوه منطلق)؛ ولولا (الذي) لم تصل إلى ذلك"(الجرجاني، 1984: 199- 200).

وتقوم نظرية التخييل عند عبد القاهر الجرجاني على قصدية المؤلف في الاحتياط لمعناه، وفي إتمامه في ذهن المتلقي على اختلاف أنماطه، وقد قصد عبد القاهر الجرجاني بنظريته في التخييل: "أن يحاول الشاعر معنى، فلا يدع شيئًا - يتم به المعنى حسنه - إلا أورده في قوالبه اللغوية والإشارية والسياقية، وأتى به: إما مبالغة، وإما احتياطا، واحتراسًا من التقصير"(القيرواني، 2009، 2/ 43) كل ذلك خشية أن تفلت الجزيئات والأنساق المشكلة للنص // للمعنى بتمامه يقول معلقا على بيت لابن المعتز، حينما شبه البرق بالخيل.

وتارة تبصره كانه أبلق مال جلهُ حين وثب

الأبلق الخيل الذي فيه سواد وبياض الجل الدابة: كالثوب للإنسان، يريد أن يريك بياض البرق في سواد الغمام، بل ينبغي أن يكون العرض بذكر الخيل أن البرق يلمع بغتة ويلوح للعين فجأة فصار لذلك كبياض الأبلق إذا ظهر عند وثوبه وميل جله عنه(ابن المعتز، ينظر: 44).

فلقول ابن المعتز (حين وثب) من الفائدة ما لا يخفى، وقد عني المتقدمون أيضا، بمثل هذا الاحتياط(الجرجاني، 1983، ينظر: 171).

فعندما يقول المتكلم قوالب لغوية لها معنى سطحي، وهو لا يريده، ولكن السامع ربما توهم أن زيداً معهم فيريد المتكلم أن يبين ويخص زيدًا بعدم المجيء فيقول: إلا زيداً لذلك سيبويه لم يقل: لأنه مخرج ما دخل فيه، وإنما قال: "لأنه مخرج مما أدخلت فيه غيره"(عبد الوهاب، 1408هـ: 48-52)، ومن أمثلة ذلك: قوله في ذكر الأطلال:

أما الوصال فقد تقادم عهده إلا التخييل يعود كل منام

فالشاعر -هنا- يذكر وصال محبوبته في مستهل القصيدة، كعادة الشعراء، ويصف الوصال بتقادم عهده، وأن هذا الوصال بالأجساد والأمر المحسوس

المشاهد كان في عهدٍ مضى، وتقادم بتقادم السنين، ولكن الشاعر استثنى أمرًا من هذا الوصال المتقادم العهد المنقطع، ألا وهو (التخييل)، وهذا التخييل مستمر في الوصال كل منام.

لم يجعل عبد القاهر الجرجاني الاستعارة إحدى ركائز نظريته، ولم يعدها من أدوات التخييل، لأنها تقوم على الكذب، يقول: واعلم أن الاستعارة لا تدخل في قبيل التخييل؛ لأن المستعير لا يقصد إثبات معنى اللفظة المستعارة، وإنما يعمد إلى إثبات شبه هناك، فلا يكون مخبره على خلاف خبره، وكيف يعرض الشك في أن لا مدخل للاستعارة في هذا الفن، وهي كثيرة في التنزيل، على ما لا يخفى، كقوله: - عز وجل: "واشتعل الرأس شيبا؟ [مريم:4]

ثم لا شبهة في أن ليس المعنى على إثبات الاشتعال، ظاهرا، وإنما المراد إثبات شبهه(الجرجاني، 1983، ينظر: 301).

بل نراها قد شاعت في كتابيه الأسرار والدلائل بصورة مكثفة، مؤمنا بأنها تكسب التراكيب تكثيفا دلاليا، حيث توفر لذهن المتلقي دلالتين، الدلالة الحقيقية، والأخرى المستعارة، فتضيف إلى الجانب المعرفي تصويرا خياليا، يُعين المتلقي على إدراك نقطة التقاطع الدلالي بين الدلالتين، الحقيقية والهامشية، ومن خلال عمليات التوزيع والترتيب والموازنة والترجيح، يستطيع المتلقي إدراك القصد المراد.

يقرر عبد القاهر أنه ثمة نوع من التراكيب اللغوية تناقض الإعجاب بها، التي يقوم فيه التخييل على الإيهام، وأن الصورة التعبيرية لهذه التراكيب اللغوية قد جاوزت حد الإبانة أو التبيين، وزال إدراكه عن العين والعقل؛ وقامت فيها الشبهات الدلالية، وتنوعت القصود حسب طاقة التلقي ونمطيتها، يقول: معلقا على قول الشاعر:

لا تعجبوا من بلى علالته قد زر أزراره على القمر

قد عمد - كما ترى- إلى شيء هو خاصية في طبيعة القمر، وأمر غريب من تأثيره، ثم جعل أن يرىٰ قوما أنكروا على الكتان بسرعة، وأنه قد أخذ ينهاهم عن التعجب من ذلك، ويقول: أما ترونه قد زر أزراره على القمر، والقمر من شأنه أن يُسرع بلى الكتان، وغرضه بهذا كله أنه يعلم أن لا شك ولا مرية في أن المعاملة مع القمر نفسه، وأن الحديث عنه بعينه، وليس في البين شيء، وأن التشبيه قد نسي وأنسى.

ثم يقول: "وهذا موضع في غاية اللطف، لا يبين إلا إذا كان المتصفح للكلام حساساً يعرف وحي طبع الشعر، وخفى حركته التي هي كالخلس، وكمسرى النفس في النفس، وإن أردت أن تظهر لك صحة عزيمتهم في هذا النحو على إخفاء التشبيه، ومحو صورته من الوهم، فأبرز صفحة التشبيه، وأكشف عن وجهه".

وليس موصوفا بالجمال ولا متلقيا بالقبول ذلك التركيب اللغوي، الذي يوفر بيئة تخييلية مخادعة، تقوم على تقييح الحسن، وتحسين القبيح، فتحول التركيب الجميل إلى آخر قبيح، والعكس، وتوغل في تصويرها حتى تصل حد التعمية والتعقيد، وكان عبد القاهر يدرك أبعاد المدرسة التوليدية التحويلية، بيد أن إدراكه على مستوى المعاني التخييلية، وثمة نص يتحدث فيه الجرجاني عن التحولات الدلالية (مما يضطرب معه المعنى) التي يُحققها التخييل في التراكيب اللغوية، لاسيما في القول الشعري خاصة.

فالتخييل يُعد نسقا من أنساق المعنى الكلي، مما يجعل التراكيب اللغوية موصوفة بالجمال، التركيب الجميل في فكر عبد القاهر الجرجاني لا يمكن فيه الفصل بين الشكل والمضمون، ولا يمكن النظر فيه إلى كل جزئية على حدة، ولكن يجب النظر إليه باعتباره كلا متماسكا، فالنظم من النظام، فلو أخذنا - مثلا - جزءا من التمثال الجميل، كأن التمثال، وفصلناه عن بقية الجسم، فإنه لا يمكن

الحكم عليه، بالجمال أو عدمه؛ إنما يحكم عليه بموضعه من التمثال، وتناسقه معه(النهاري، 2014: 451).

ومن طرق الاحتياط للمعنى الإشارة الحسية، فيما لا يحتاج إلى إشارة احتياطاً، وتمكينا للمعنى، وخوفا من انصراف الذهن إلى شيءٍ آخر، وإن كان الاحتمال بعيداً(السامرائي، 2021، 151).

وألمح عبد القاهر الجرجاني إلى دور البيان بعد الغموض والإيهام في توجيه الدلالة، قبل المجيء بصلة الموصول؛ فقال: "فقولك: (مررت بزيد الذي أبوه منطلق) تجدك قد أبنت زيدا من غيره بالجملة التي هي قولك: (أبوه منطلق)، ولولا (الذي) لم تصل إلى ذلك"(الجرجاني، 1984: 199- 200).

• المبحث الثالث: التراكيب التخييلية وجماليات التلقي:

من الجيد التنويه إلى أن من آليات الجمال في اللسانيات النقدية الحديثة هو أن يستطيع المؤلف أن يربط بين التخييل وقدرته على محاكاة القصد المركزي، وأن للتخييل آثارا إيجابية في توضيح المعنى وتحديده وتقييده، وإذا سلمنا أن جانب الجمال يغلب في الشعر أدركنا عليه تمحور تراكيب عبد القاهر في التخييل حول الشواهد الشعرية، ويبدو أن عبد القاهر قد فرق بين الشعر والنظم على أساس التخييل، بحيث أصبح الشعر - عنده - بناءً تخييلياً/ يستهدف إدارة المخيلة عند المتلقي إثارة خاصة، تؤثر في قوته النزوعية إلى الدرجة التي تقود إلى فعل أو انفعال(Walzer، 1970، ينظر: 232- 252).

فعقد عبد القاهر باباً مستقلا مطولا للتخييل، عده من ضمن أبواب البلاغة والجمال، وأنه من أسرار الإمتاع، فعل هذا، وهو مدرك أن مزية الصورة تتمثل في أنها تقدم المعنى تقديما حسياً، وتعتمد على عناصر التوليدية التحويلية في تحويل المسموع إلى هيئة مبصرة، مما يعين المتلقي على إدراك الأنساق والتفاصيل المشكلة للبنية الكلية للنص، أو للتراكيب اللغوية؛ إذ يعتمد مؤلف النص على عمليات التعويض التصويرية في دفع المتلقي إلى اقتناص المعنى، فمثلا يعوض

التشبيهُ والتمثيل عامة المعنى الحقيقي، ليس هذا فحسب، وإنما الغاية في تبليغ المعنى في أحسن صورة، وجعل المتلقي يقتنع به اقتناعا يصرف كل احتمال للاضطراب، ويتقبله، فيظل أبقى في عقله ونفسه، وفي ذلك ربط كبير بين الاستبدال والاستدلال.

ولعل مزية الصورة - بوصفها تجسيدا للمعاني يجعلها مرئية مشاهدة - أن يكون حضورها في ذهن المتلقي أقوى ووقعها عليه أشد، وأثرها فيه أعمق، إذ إن الحقيقة المجردة عن التخييل لا تأخذ من نفس السامع مأخذا ولا تترك في قلبه أثرا، لأنها تظل عارية غير مؤثرة، حتى تكتسى برودا من التخييل فتشبيه، تمتلك المسامع وتجتلب القلوب(المنفلوطي، 1990: 188).

من ذلك ما جاء على لسان الجرجاني، بقوله: "لو أن رجلاً أراد أن يضرب لك مثلا في تنافي شيئين، فقال: هذا وذاك هل يجتمعان؟ وأشار إلى ماء ونار؛ وجدت لتمثيله من التأثير ما لا تجده إذا أخبرك بالقول: هل يجتمع الماء والنار؟ وذلك الذي تفعل المشاهدة من التحريك للنفس، والذي يجب بها من تمكن المعنى في القلب إذا كانت مستفادةً من العيان ومتصرفة، حيث تتصرف العيانُ "(الجرجاني، 1983، ينظر: 106) وأضاف الجرجاني يشرح أسباب تأثير التمثيل في النفس أن أول ذلك وأظهره أن أنسن التقوي موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي وتأتيها تصريح بعد مكني وأن تردها إلى شيء في بأنه أعلم وثقتها به في المعرفة أحكم... لأن العلم المستفاد من طريق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام... وكما قالوا: "ليس الخبر كالمعاينة و"لا الظن كاليقين".

• مراوغة التراكيب التخييلية وتحقق الجمال:

جعل عبد القاهر انتخاب القوالب اللغوية التي تحمل صورة // خيالا مما يعد جزءا من نظريته عن التخييل، ودوره في تحديد الدلالة، فأدرك أن كل قالب لغوي يحمل دلالة خيالية خاصة، فعنى باختيار الصيغة عناية حسنة، لاسيما

الفروق بين الاسم والفعل، وكان حديثه ضمن موضوع (الفروق في الخبر)، حيث بين الفرق بين الخبر إذا كان اسماً أو فعلا، أو صفة مشبهة

وليس معنى هذا أن تتطابق آلية المحاكاة بالتخييل مع الموضوع الأصلي لمؤلف النص/ فالمتلقي - في تخيله -لا يرى المعنى الأصلي ذاته، أو يحاكيه كما هو: وإنما يراه من نسق خاص، باعتماد المعرفة على الحقيقة والجمال، وتجسد ذلك في هيئة (تخييل) بصرية أو ذهنية، تتمتع بسمة المراوغة، وليس شرطا أن نجعل التخييل سببا كليا ومباشرا في قياس مدى قدرة طاقة التلقي على استيعاب القصد المرام، إذ يجوز للموضوع الأصلي وانموذج المحاكاة التخييلية أن يتوافقا، أو يتشابها، أو يتكاملا، أو يتطابقا، لذا تبع عبد القاهر المنهج المنطقي والقياس المتعقل.

وتقوم قوة الاستعارة على أنها توفر امتدادا دلاليا للمعاني، وتصنع صورة أخرى للمعنى، صورة تعرض جزء متحركا من أجزاء المعنى، تلك هي الاستعارة المفيدة عند عبد القاهر، يقول: "اعلم أن الاستعارة - في الحقيقة - في هذا الضرب دون الأول - يقصد الاستعارة غير المفيدة - هي: أمد ميداناً، وأشد اقتناناً، وأكثر جرياناً، وأعجب حسنا وإحساناً، وأوسع سمة، وأبعد غورا، وأذهب نجدا في الفصاحة وغورا، من أن تجمع شعبها وشعوبها، وتحصر فنونها وضروها، نعم وأسحر سحرا، وأملأ بكل ما يملأ صدرا؛ ويمتع عقلا، ويونس نفساً، ويوقر أنساً، وأهدى إلى أن تعدى إليك عذارى قد تخير لها الجمال، وعنى بها الكمال، وأن تخرج لك من بحرها جواهر إن باهتها الجواهر مدت في الشرف والفضيلة بأنها لا يقصر، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لا تنكر"(الجرجاني، 1983: 103).

وتتجلى صلة التخييل بالاستعارة في فكر تراكيب عبد القاهر الجرجاني في أنها تستحضر صورة المعاني، على سبيل التشخيص أو التجسيم؛ فتصور المعاني المجردة في صورة حسية، وقد جعل عبد القاهر التخييل جزءًا أصيلا من تمام المعنى، كأنه يوازن بين هذا المعنى وقولهم: الإعراب شطر المعنى، فيكون -

عندهـ التخييل شطر المعنى، ومن أدوات الثبات والتمام له، وهو أي: التخييل، محقق لقاعدة التمام الدلالي لكلا المعنيين، الحقيقي والتخييلي، ومن المفيد التأكيد على أننا نتكلم بالنفس والفكر، لا بالكلمات، ويمكننا القول إن التراكيب اللغوية صيغ لفظية تحمل إيحاءً خياليا، ويفهم من كلام عبد القاهر في الأسرار عن أقسام التخييل أنه يؤكد على أن المعنى المراد من وراء القوالب اللغوية والإشارية حلم، يعمد فيه المؤلف إلى صياغة معطيات منتحبة والتأليف فيما بينها ولترسم معنى، جسدته الصورة، التي صاغها التخييل.

ولكن الصورة التي يبرمها التخييل شعور لا يخالف العقل، ولا يُجافى الفكر، بيد أن هناك نوعين من التخييلات، خيال التعقل، والتخييلات الباطلة، وليس من شك في أن خيالات الواقع هي التي تجعل الكلام والقصد منطبقا مع الواقع(الزهاوي، 1973م، ينظر: 3).

وكأن تراكيب// آلية// تصرف التخييل عمل ابتكاري، لا يقوم على استعارة صور المحسوسات فحسب؛ وإنما تقوم بالتأليف بينها، وتعيد تشكيلها في تركيبات مختلفة، يتفق - في بعضها- أن تكون مخالفة للمحسوس، وهي القوة النفسية الفاعلة في عمليات تحقيق التوازن بين الأصل والمحاكاة(رافع، 2011، ينظر: 46).

لذا يسهم التخييل في فكر عبد القاهر في تصوير المعاني، في صورة حسية، من شأنه أن يزيد في إثبات المعاني التي يراد تقديمها، من خلال الصورة والمبالغة في توكيدها، عبر طاقات تأثيرية هائلة، ذلك أن التخييل الذي تحدثه الصورة في مخيلة المتلقي عن طريق التشخيص أقدر على إحداث الاستجابة المناسبة(أبو العدوس، 1997م، ينظر: 241). فيمنح التخييل في تراكيب عبد القاهر المعاني قوة، حين يوفر للمتلقي صدقا في الخبر، وهو في حالة التخيل، وقد مثل لهذا الرأي، بقول مسلم بن الوليد:

الشيب كره وكره أن يفارقني=أعجب بشيءٍ على البغضاء مودود

فهو من حيث الظاهر صدق وحقيقة، لأن الإنسان لا يعجبه أن يدركه الشيب، فإذا هو أدركه كره أن يفارقه، فتراه - لذلك - ينكره ويكرهه، على إرادته أن يدوم له وإلا أنك إذا رجعت إلى التحقيق كانت الكراهة والبغضاء لاحقة للشيب على الحقيقة، فأما كونه مرادا ومودوداً فمتخيل فيه، وليس الحق والصدق، بل المودود الحياة والبقاء(الجرجاني، 1983، ينظر: 296).

يضمن كلام عبد القاهر إشارة إلى التخييل المخادع، الذي يقوم على عقد صلة بين الحقيقة والتخييل// الصورة، يقوم فيه المتلقي - حسب كلام عبد القاهر - بإدراك القصد عن طريق القياس الخادع، ليوازن بين الصورة الحقيقية، والأخرى التخييلية للمعاني، وعرض ذلك على المرجعيات العقلية والنفسية.

ويلازم الإيحاء والرمز والإشارة، والإيماء التصريح في تراكيب التخييل عند عبد القاهر، في علاقة تكاملية متكافئة، في غلبة السلطة القصد المضمن في فعل القول، إذ الأمر أنه كلما قلت العبارة اتسعت دائرة الصورة، في عرض المعاني، فتغدو الصورة التخييلية من وسائل التعبير، وتُعين الدوال الملفوظة في حمل المدلولات السطحية أو العميقة، فتعين المتلقي على كشف المعاني(كيليطو، 2982، ينظر: 64).

ونجد أن هذا الأساس متجذر في فكر عبد القاهر، وحاضر في نظريته التقعيدية، حيث أدرك أن للرمز والإيحاء دورا في عرض التفاصيل الدقيقة للمعاني، يقول: "إذا تأملت كلام الأولين، الذين علموا الناس وجدت العبارة فيه أكثر من الإشارة، والتصريح أغلب من التلويح، والأمر في علم الفصاحة بالضد من هذا، فإنك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه.

وجدت جله أو كله رمزا ووحيا وكناية وتعريضا، وإيماء إلى الغرض من وجه لا يفطن إليه إلا من غلغل الفكر، وأدق النظر، ومن يرجع من طبعه إلى المعية يقوي معها على الغامض، ويصل بها إلى الخفي، حتى كان بسلا حراما أن

تنجلى معانيهم سافرة الأوجه، وحتى كأن الإفصاح بها حرام، وذكرها على سبيل الكناية والتعريض غير سائغ"(الجرجاني، 1984: 407).

يؤكد عبد القاهر أن التخييل كلما كان موغلا في الغرابة، كان موغلا في تجسيد الصورة، ويجاوز هذا النمط من التخييل حد العقل، وحد البحث عن صدقه أو كذبه، كما يجاوز حد الأعراف اللغوية ومنطقية الترتيب، إنه ذلك التخييل المركب، الذي يلامس النفس، ويدفعها إلى الاهتزاز والطرب.

إن التخييل القائم على الغرابة تعوزه الدقة والبصيرة، والتأمل والمراجعة، يقول عبد القاهر معلقا على البيت السابق: "ثم راجع فكرتك، واشحذ بصيرتك، وأحسن التأمل، ودع عنك التجوز في الرأي، ثم انظر: هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم منصرفا إلا إلى استعارة وقعت موقعها، وأصابت غرضها، أو حسن ترتيب، تكامل معه البيان، حتى وصل المعنى إلى القلب، مع وصول اللفظ إلى السمع، واستقر في الفهم، مع وقوع العبارة في الأذن.

ثم يبرز رغبته في القول بأن الشاعر حقق جمالية للتراكيب من خلال التخييل وصورته، التي عبرت عن المعنى بصورة حسية، يقول: "لفظة من ألفاظها... من الذهب تراها بصحبة الجواهر لها في القلادة، واكتنافها لها في عنق الغادة، وصلتها بريق حمرتها، والتهاب جوهرها، بأنوار تلك الدور التي تجاورها... تزداد جمالا في العين، ولطف موقع من حقيقة الزين... وإن كان لا يبعد أن يتخيله من لا يمعن النظر، ولا يتم التدبر"(الجرجاني، 1983: 87- 89).

فالمعنى الذي صيغ البيت لأجله لا يتعدى قولك: أخذنا تتناوب الأحاديث، والإبل تسير مسرعة في الأباطح، ويبدو أنه معنى مبتذل، وحديث لا يختص به عابر سبيل دون آخر، ولولا أن الشاعر قد أورده في هذه الصورة، التي خيلت إليك بطاحا تتدفق بسيل من ناق الإبل والمطايا، لم ينل عندك من الخطوة والاستحسان(الجرجاني، 1984، ينظر: 36).

ينظر عبد القاهر إلى تركيب التخييل، بوصفه سببا من أسباب التماسك بين عناصر النص الواحد فقد كانت فكرة الانسجام النصي واضحة في ذهن عبد القاهر الجرجاني وضوحا متميزاً.

وقد جاءت صيغة المضارع في نص في دلائل الإعجاز العبد القاهر الجرجاني، لتدل على استقصاء الشيء واستظهاره، إذ يقول: "كما ينص الشيء ويعين ويكشف عن وجهه ويبين"

فقد تابع الزمخشري الفكرة ذاتها، بل إنه يضفي على هذا النمط العالي من الكلام أثرا جماليا، يعتمد على الذوق الصادق، والحس المرهف في القراءة؛ أو الإنتاج، أو التخييل، يقول في قوله - تعالى: "وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرَّ السحاب، صنع الله الذي أتقن كل شيء"(الزمخشري، 2010: 3/ 304).

إذ يشير إلى تحقق التماسك النصي في هذا النص، وهو تماسك قائم على حسن التأليف، ومنطقية الترتيب، كأنه أفرغ في قالب واحد، ويدلل على ذلك ببلاغة الخطاب القرآني في استخدام المصادر، كقوله - تعالى: "مر". أو صنع "، فيقول: ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب كلام: جاء كالشاهد بصحته، والمنادي على مداده، وأنه ما ينبغي أن يكون إلا كما قد كان، ألا ترى إلى قوله: "صنع الله". بعدما وكله بإضافته إليه بسمة التعظيم، كيف تلاها بقوله: "الذي أتقن كل شيء" [النمل:88]

و قد جعله السيوطي (ت 911هـ) سببا صريحا في إتمام الإفادة للمعنى: بقراءته اللفظية والمعنوية، حيث قال: "لأن الغرض من النص الاستقلال بإفادة المعنى على قطع؛ مع انحسام جهات التأويل والاحتمال، مع القرائن الحالية والمقالية" (السيوطي: 2/ 31).

تلك الفكرة سبق إليها الزمخشري (ت 538هـ)؛ حين نظر إلى النص نظرة شاملة، تستهدف الخروج من دائرة الجملة الضيقة: إلى رحاب الفيوضات الدلالية والاتساع؛ فقد كان - بعد الدراسة التحليلية للجمل، وبعد بيان ترتيب معانيها وتناسقها - ينظر إلى الدلالات نظرة أوسع، يصف النص، أو يشير إلى

بعض الظواهر الفنية في الأسلوب؛ ويراها في مكامن القوة والتأثير(أبو موسى: 13). من ذلك قوله - معلقا على قوله - تعالى: "يوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا ما شاء الله وكل أتوه داخرين، وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر من السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون. من جاء بالحسنة فله خير منها. وهم من فزع يومئذٍ آمنون. ومن جاء بالسيئة فكيت وجوههم إلى النار". [النمل87-90]

ليس من شك في أن التخييل يؤدى دورا بارزا في صنع الصور التشبيهية؛ مع إمكانية حمل المفاجآت ذهنية، أو نفسية، يعمد إليها المؤلف، بما يثير دهشة المتلقي، ويستحوذ على إعجابه، وهذا ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني، بقوله: "لأن الصنعة إنما تمد باعها، وينشر شعاعها، وهنا يجد الشاعر سبيلا إلى أن يبدع ويزيد. ويبدئ في اختراع الصورة ويعيد، ويصادف مضطربا كيف شاء واسعا، ومددا من المعاني متتابعاً"(الجرجاني، 1983: 343).

إن التراكيب اللغوية والإشارية - لاسيما الجملة الشعرية - تعتمد على التخييل، أو كما قال الرافعي: "إن التخييل هو روح الشعر"(الرافعي، 2019: 3/ 734). والكلام السالف الذكر يشير إلى أن التخييل يقوم على صياغة جمالية وواقعية المعطيات مقصودة فكرية أو نفسية، يقوم مؤلف النص من خلالها بإحداث إيحاء ما، بشرط أن يفهم أن الصياغة التخييلية - بوصفها صفة تتحرك منطلقة من الفكر أساسا، وبوصفها صياغة لا تخضع الأهواء الانفعال الفردي، كذلك إنها إضافة لا تغير الحقيقة، أو تعارضها، بل على العكس، فهي تتجاور معها في قرآن شعوري، يصبح الإدراك فيه من شعور النفس بالحقيقة إلى جانب التخييل(بطي، 2019، ينظر: 198).

ولعل مزية الصورة - بوصفها تجسيدا للمعاني يجعلها مرئية لمشاهدة - أن يكون حضورها في ذهن المتلقي أقوى ووقعها عليه أشد، وأثرها فيه أعمق. إذ إن الحقيقة المجردة عن التخييل لا تأخذ من نفس السامع مأخذاً ولا تترك في قلبه

أثراً لأنها تظل عارية غير مؤثرة، حتى تكتسي برودا من التخييل، فتمتلك المسامع وتجتلب القلوب(المنفلوطي، 1990: 188)

من ذلك ما جاء على لسان الجرجاني، بقوله: "لو أن رجلاً أراد أن يضرب لك مثلا في تنافي شيئين، فقال: هذا وذاك هل يجتمعان؟ وأشار إلى ماء ونار؛ وجدت لتمثيله من التأثير ما لا تحده إذا أخبرك بالقول: هل يجتمع الماء والنار؟ وذلك الذي تفعل المشاهدة من التحريك للنفس، والذي يجب بها من تمكن المعنى في القلب إذا كانت مستفادة من العيان ومتصرفة، حيث تتصرف العيان"(الجرجاني، 1983: 106)، وأضاف الجرجاني يشرح أسباب تأثير التمثيل في النفس أن أول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي وتليها بصريح بعد مكني وأن تردها إلى شيء هي بأنه أعلم وثقتها به في المعرفة أحكم... لأن العلم المستفاد من طريق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة بفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام.. وكما قالوا: ليس الخبر كالمعاينة و"لا الظن كاليقين".

وقد جعل عبد القاهر انتخاب القوالب اللغوية التي تحمل صورة (خيالا) مما يعد جزءا من نظريته عن التخييل، ودوره في تحديد الدلالة، فأدرك أن كل قالب لغوي يحمل دلالة خيالية خاصة، فعني باختيار الصيغة عناية حسنة، لاسيما الفروق بين الاسم والفعل، وكان حديثه ضمن موضوع (الفروق في الخبر)، حيث بين الفرق بين الخبر إذا كان اسماً أو فعلا، أو صفة مشبهة.

وليس معنى هذا أن تتطابق آلية المحاكاة بالتخييل مع الموضوع الأصلي لمؤلف النص، فالمتلقي - في تخيله - لا يرى المعنى الأصلي ذاته، أو يحاكيه كما هو؛ وإنما يراه من نسق خاص باعتماد المعرفة على الحقيقة والجمال، وتجسد ذلك في هيئة (تخييل) بصرية أو ذهنية، تتمتع بسمة المراوغة، وليس شرطا أن نجعل التخييل سبباً كليا ومباشرا في قياس مدى قدرة طاقة المتلقي على استيعاب القصد المراد، إذ يجوز للموضوع الأصلي ونموذج المحاكاة التخييلية أن يتوافقا، أو يتشابها، أو يتكاملا، أو يتطابقا.

يقول عبد القاهر: "فإذا قلت: "زيد منطلق، فقد وضعت كلامك لإثبات الانطلاق لزيد، فعلا له، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئا فشيئا، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: "زيد طويل"، و"عمر قصير" فكما لا تقصد هنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث، بل توجبهما وتثبتهما فقط، وتقضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرض في قولك: "زيد منطلق" لأكثر من إثباته لزيد(الجرجاني، 1983، ينظر: 340) (الجرجاني، 1984، ينظر: 173- 198)، ولكن الصورة التي يبرمها التخييل شعور لا يخالف العقل، ولا يجافى الفكر، بيد أن هناك نوعين من التخييلات خيال التعقل، والتخييلات الباطلة، وليس من شك في أن خيالات الواقع هي التي تجعل الكلام والقصد منطبقا مع الواقع(الزهاوي، 1973م: 3).

ومن الأسس التي أقام عليها عبد القاهر الجرجاني نظريته في التخييل أن المعنى المتخيل خارج عن النظام اللغوي ومنطقية العقل، وهو معتمد على الهيئة أو الصورة التعبيرية، لا يمكن بحال أن يخضع في دلالته المقصودة إلى أعراف المجتمع، أو التفسيرات المألوفة لدى ملتق ما، أو جماعة لغوية معينة، وهو - مع ذلك - طريف، غريب، مفاجئ، غير مألوف، معتمد على الخواطر والأفكار.

وفي هذا الصدد يقول عبد القاهر الجرجاني: "وكذا قول النبي - صل الله عليه وسلم -: "إياكم وخضراء الدمن"(المجلسي، 1404، 20/ 22)، معلوم أن ليس القصد إثبات معنى ظاهر اللفظين، ولكن الشبه الحاصل من مجموعهما، وذلك حسن الظاهر مع خبث الأصل(الجرجاني، 1983، ينظر: 302).

ويقوم المعنى التخييلي على آلية التعريض والتأمل، لذا فهو يحتاج إلى فكر ورؤية، يقول: "واعلم أني لست أقول إن الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة أصلاً "(الجرجاني، 1984: 410).

يؤسس عبد القاهر بهذا الطرح تراكيب حجاجية، ترتكز على خيال الإقناع(أبو زيد: 46-47)، بأن يستثمر المتلقي هذا التخييل في الاستدلال

المنطقي على القصد، وكأن التخييل محاور ضمنيا، يتخذ من الصورة سبيلا في عرض الفكرة وإبراز دقائقها، التي قد لا تنجح القوالب اللغوية المجردة في حملها. لذا جاء البناء الحجاجي عند الجرجاني قائما على تأكيد القصد بما يمكن أن نطلق عليه: خيال الحجة.

ويرى عبد القاهر أن التخييل - وحده - ليس بالأداة الكافية في عرض القصد، إنما هو معين للقوالب والسياقات، إلا أن التخييل عنده يصلح لأن يكون ممهداً دلالياً، أو سلماً متدرجاً، يعين من نقص القوالب اللغوية والسياقية في عرض المقاصد، فأحياناً نراه يستعمل أفعالا من شاكلة: محتل، فظننته، وضربوا له المثل.

ويقال إجمالاً: إن استثمار عبد القاهر لآلية التراكيب التخييلية في مشروعه الحجاجي، وحرصه على تحقيق جمالية التلقي قد جاءت منطلقة من الشك، والاحتمال الدلالي المتواتر، وأنه متى ما غمض المعنى، استدل عليه بالحجة والبرهان، وكأن التراكيب التخييلية قد قدمت مقومات الفحص والبحث لبعض تفاصيل المقاصد. وقد بدا في معرض حديثه عن أبنية التراكيب التخييلية أنه يدفع طاقة التلقي إلى الانتفاع من تصرف التخييل إلى تحقق الاقتناع والجمال.

الخاتمة، وقد تضمنت أهم ما توصل إليه البحث من نتائج.

- استنتج عبد القاهر الجرجاني نظريته عن التراكيب التخييلية من الأشعار التي استشهد بها بوصفها مرجعا لقيه العرب والنقاد بالقبول، وأنه قد حصر نظريته التخييلية في بعض ما قالت العرب، ولو أنّه استرسل في تتبعها وتقصيها لأمكنه التوصل إلى قواعد أخرى لتراكيب التخييل في فكره.

- وتراكيب التخييل - عند عبد القاهر - تراكيب ممتدة امتداد النتاج الأدبي، لذا لم يضع عبد القاهر التراكيب التخييلية قوالب أو قوانين تصب فيها، فاستخدم عبارة: شبه القوانين، ولم يستطع وضع حدود فاصلة بين أنواع التخييل، إذ هو

مـدرك لجمودهـا، لإيمانـه بـأن أطـر التخييـل تتغيـر بتغيـر الـذوات والأشـخاص، والأنفس والسياقات في المنتج الكلامي.

وإن ما صنعه عبد القاهر في الأسرار والدلائل كان على سبيل الاستشهاد على وجود أصول تضبط قصدية التخييل، فاتحا الباب أمام فيوض كثيرة ومتنوعة وظفهـا بعـده الزمخشـري، بعـد أن اسـتوعبها جيـدا، فأضـاف عليهـا ملامـح آخـر، وعمد إلى توفير بيئة إقناعية للمتلقي، من خلال ربطه بين التقعيد والتطبيق.

- بدا عبد القاهر - في كتابيه الأسرار والدلائل - راغبا في ضبط الأشياء وإجرائهـا علـى أنسـاق وقـوانين ثابتـة، فـلا يلائمـه تمـرد التحييـل علـى المسـتوى التطبيقـي (التـوظيفي) علـى إطـلاق المصـطلح وآليـات التطبيـق، فيجعـل التخييـل منضـبطا بالقواعـد والقـوانين، لـذلك أطلـق مـا أسـماه: شـبه القوانين(الجرجـاني، 1983، ينظر: 394) للتخييـل؛ حتى يهتدى بهـا إلى التوضيح والتفصيل وهـذا ما وظفه خلفه الزمخشري (ت 538هـ) في تعرضه لتفسير آيات كتاب الله الكريم.

- تقوم قدرة التراكيب التخييلية على إنجاز فكرة التحاجج والإقناع عند - عبد القاهر الجرجاني -

على مفهوم الادعاء بأن طاقة التلقي متوقفة على حركة المعاني والدلالات والأبعاد السياقية، السابقة، والموازية، وليست حركة الألفاظ، وهي ليست صورة جمالية فحسب، بقدر ما هي طريقة لتأكيد الإثبات الذي يقوم على الادعاء.

- استحضر طاقة التلقي إلى رحاب ما وراء الصياغة، انظر إليه يقول: "هذا ما أردت أن أبينـه لك"(الجرجـاني، 1984: 41)، فقـد اسـتخدم كـاف الخطـاب وتـاء التكلم ليشير إلى ذات افتراضية متخيلة في حد ذاتها، وقد جسد لها عبد القاهر فكر ورؤية، ولولا إدراكه دور التخيل في توجيه العقل نحو المقاصد لاكتفى بأن يقول: هذا ما أردت أن أبينه؛ بيد أنه أراد أن يشارك في التصور لكامل المقصد.

- جعل عبد القاهر من التراكيب التخييلية سبيلا للكشف عن القصد وإبانته، وأن التخييل دليل على ما يدعيه مؤلف النص من دلالات جزئية، تمهد لأخرىٰ كلية.

- أشار إلى أن التراكيب التخييلية توفر إقناعاً بصرياً، وعلاقات حجاجية، يقول عبد القاهر: "وأن يكون غابة ما لصاحبك منك أن تحيله على نفسه، وتقول: قد نظرت فرأيت فضلاً ومزية، وصادفت لذلك أريحية، فانظر لتعرف؛ كما عرفت، وراجع نفسك واسبر، ودق، لتجد مثل الذي وجدت؛ فإن عرفت فذاك، وإلا فبينكما التناكر، تنسبه إلى سوء التأمل، وينسبك إلى فساد في التخيل"(الجرجاني، 1984: 41- 42).

- احتفىٰ صاحب تراكيب النظم بالتراكيب التخييلية، حين أقام قصديته من مفهوم الادعاء بأنه قائم بين طرفين: أحدهما الأصل والآخر هو العارض وفيلجأ المدعي إلى التلاعب بمعانيه ودلالاته وتوظيفها على النحو الذي يخدم طبيعة توجيه خطابه ليعمل على إقناع مخاطبه واستمالته، هي الية لإثبات رأي المخاطب، والعمل على إقناع المتلقي، حيث إنه يأخذ المقاصد إلى النفس، ويصل به إلى أناسي العيون وحبات القلوب(الجرجاني، 1984: 42).

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

أولاً: المصادر والمراجع العربية:

• أبو موسى، (محمد محمد)، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة.

• إبريـر، (بشـير)، 2005م، مـن لسـانيات الجملـة إلـى علـم الـنص، مجلـة التواصل، العدد: 14، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر.

• ابن المعتز، ديوان ابن المعتز، د.ت، دار صادر، بيروت.

• ابن جني، (أبو الفتح عثمان)، 2000م، سر صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1.

• أبو العدوس، (يوسف) 1997م، الاستعارة في النقد الأدبي الحديث، الأبعاد المعرفية والجمالية، منشورات الأهلية، عمان، الأردن.
• أبو تمَّام، ديوان أبي تمَّام.
• أبو زيد، (أحمد) الاستعارة عند المتكلمين، مجلة المناظرة.
• الباقلاني، (أبو بكر)، 2009م، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة.
• الجرجاني، (عبد القاهر المتوفى 471 هجرية)، 1984م، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، (د. ط)، مكتبة الخانجي، ومطبعة المنتدى، القاهرة.
• الجرجاني، (عبد القاهر)، 1982م، المقتصد في شرح الإيضاح، تحقيق الدكتور: كاظم بحر المرجان، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، سلسة كتب التراث، رقم: 115، دار الرشيد للنشر.
• الجرجاني، (عبد القاهر)، 1983م، أسرار البلاغة، شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، (د. ط)، مكتبة الإيمان المنصورة، (د.ت) وتحقيق محمود شاكر، دار المدني جدة، 1991م، وتحقيق ريتر، دار المسيرة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة.
• الرافعي، (مصطفى صادق)، 2019م، وحي القلم، (د. ط)، مكتبة عصير الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة.
• الزمخشري، (جار الله)، من دون تاريخ، أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، ط 1.
• الزمخشري، (جار الله)، 2010م، الكشاف، شرح: يوسف الحمادي، مكتبة مصر، القاهرة، ط 1.
• الزهاوي، (جميل صدقي)، 1973م، ديوان الزهاوي، بيروت، (د. ط).
• السامرائي، (فاضل صالح)، 2021م، الجملة العربية والمعنى، دار ابن حزم، ط 2.

• السيوطي، (جلال الدين)، (د. ت)، الإتقان في علوم القرآن، وبالهامش: إعجاز القرآن، للقاضي أبي بكر الباقلاني، (د. ط)، دار نهر النيل.

• القيرواني، (ابن رشيق)، 2009م، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الطلائع، مصر.

• المجلسي، (محمد باقر)، 1404هـ، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، دار الكتب الإسلاميّة، ط2.

• المنفلوطي، (مصطفى لطفي)، 1990م، النظرات، (د. ط)، دار المعارف، القاهرة.

• بطى، (روفائيل)، 2019م، سحر الشعر، المكتبة العصرية، بغداد، (د. ط).

• حمدي، (محيي الدين)، 1998م، التخييل عند عبد القاهر الجرجاني، دار المنظومة، ضمن أعمال ندوة عبد القاهر الجرجاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، تونس.

• رابح، (بوحوش)، 2006م، اللسانيات وتطبيقاتها على الخطاب الشعري، دار العلوم عناية الجزائر.

• رافع، (ماهر)، 2011م، جمهورية أفلاطون (المدينة الفاضلة)، العالمية للكتب والنشر، بيروت، لبنان.

• سماح، (سهام ونوال سماح)، الأسلوب الحجاجي في القرآن الكريم- سورة الكهف أنموذجاً.

• سيبويه، (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)، 1983م، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2.

• صولة، (عبد الله)، 2007م، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية.

• عبد الحميد، (أحمد)، 2020م، دراسة الخطاب الحجاجي في منظور الجدل التداولي، مجلة عالم الفكر، العدد 182 أبريل/ يوليو، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

• عبد الوهاب، (عبد الرحمن بهاء الدين)، 1408هـ، دراسة في معنى الاستثناء وأسلوب الاستثناء المنقطع، مجلة التوباد الجمعية السعودية للثقافة والفنون، مج 1، العدد: 4 شوال.

• عصفور، (جابر)، 2009م، النقد الأدبي (قراءة التراث النقدي)، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1.

• عيد، (صلاح)، 1993م، التخييل نظرية الشعر العربي، مكتبة الآداب- القاهرة، مصر.

• كيليطو، (عبد الفتاح)، 1982م، الدلالة الشمسية للمجاز عند عبد القاهر في الأدب والغرابة، بيروت.

• مطلوب، (أحمد)، 1964م، البلاغة عند السكاكي، مكتبة النهضة، بغداد، (د. ط).

• النهاري، (صالح على محمد)، 2014م، من مظاهر الإبداع اللغوي عند علماء العربية القدامى، كتاب المؤتمر الدولي الثاني لكلية الآداب، جامعة أسيوط.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

-(Lakoff) G. and Turner1988, More than Cool Reason: A fieled Guid to Poetic Metaphor; the University of Chicago Press; Chicago and London;; P 60

-(Walzer) Richard, 1970, Greek Into Arabic. Univ. of South Carolina Press..pp 235-252.